السورة العشرون

سورة العَلق

بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ

﴿ ٱقْرَأْ بِٱسْمِ رَبِّكَ ٱلَّذِى خَلَقَ ﴿١﴾ خَلَقَ ٱلْإِنسَٰنَ مِنْ عَلَقٍ ﴿٢﴾ ٱقْرَأْ وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ ﴿٣﴾ ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ ﴿٤﴾ عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴿٥﴾ كَلَّآ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ لَيَطْغَىٰٓ ﴿٦﴾ أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ ﴿٧﴾ إِنَّ إِلَىٰ رَبِّكَ ٱلرُّجْعَىٰٓ ﴿٨﴾ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ﴿٩﴾ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴿١٠﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴿١١﴾ أَوْ أَمَرَ بِٱلتَّقْوَىٰٓ ﴿١٢﴾ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴿١٣﴾ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴿١٤﴾ كَلَّا لَئِن لَّمْ يَنتَهِ لَنَسْفَعًۢا بِٱلنَّاصِيَةِ ﴿١٥﴾ نَاصِيَةٍ كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ ﴿١٦﴾ فَلْيَدْعُ نَادِيَهُۥ ﴿١٧﴾ سَنَدْعُ ٱلزَّبَانِيَةَ ﴿١٨﴾ كَلَّا لَا تُطِعْهُ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ۩ ﴿١٩﴾ ﴾

هذه هي السورة التاسعة عشرة في الترتيب التراجعي الذي اتّخذناه منهجاً في دراسة السوَر. وهي تتألّف من ٧٢ لفظاً وتحتوي على ما لا يقلّ عن ١٢٥ موقعاً لغويّاً وفكريّاً وخياليّاً جديداً أضافها القرآن الكريم إلى لغة العرب.

وإلى ذلك، يميّز السورةَ عن غيرها احتشادُ ما لم يحتشد في غيرها من السور التي درسناها حتّى الآن؛ من عناصر الألفاظ والتراكيب والتعبيرات والعلاقات اللغويّة الجديدة التي تنفرد بها دون غيرها من السوَر، ويصل عددها إلى ٢٨ موقعاً.

إنّ فيها ممّا لا يتكرّر في السوَر الأخرى خمسةَ ألفاظٍ مفردةٍ هي: (عَلَق، الأكرم، الرُجعى، لنسفعاً، الزبانية)، إلى جانب ٢٣ تركيباً أو تعبيراً تختصّ بها وحدها دون سائر السوَر، وهي: (اِقرأ باسم، اِقرأ وربُّكَ، وربُّكَ الأكرم، عَلّم بالقلم، عَلَّم الإنسانَ، ما لم يعلم، إنّ الإنسانَ لَيَطغى، أنْ رآه، إلى ربِّكَ الرُجعى،

يَنهى عبداً، عبداً إذا صلّى، أرأيتَ إنْ كان، على الهُدى، أمرَ بالتقوى، أنّ اللهَ يَرى، كلاّ لئن، لئن لم يَنتهِ، لنَسفعاً بالناصية، ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة، فلْيَدْعُ ناديَه، سندعُ الزبانية، كلاّ لا، واسجُدْ واقترِبْ).

أولاً: الألفاظ والمصطلحات

١- اِقرأ:

هذا الفعل، شأنه شأن الفعل القرآنيّ الآخر (قل)، هو بمثابة عدّة مواقع قرآنيّةٍ جديدةٍ تجمّعت في لفظٍ واحد.

أ- إنّه أوّلاً بدايةٌ غير عاديّةٍ للحديث، أيّاً كان نوع هذا الحديث؛ إذ لم نعتدْ أن نبدأ كلامنا بهذا الفعل مباشرةً من غير أن يسبقه لفظٌ أو ألفاظٌ عدّة، إلاّ أن يكون سؤالاً يُطرح في كتابٍ تعليميٍّ أو في امتحانٍ (اقرأ النصّ التالي) أو ما شابه ذلك. هل هو أمرٌ عاديٌّ، مثلاً، لرسالة، أو خطبة، أو قصيدة، أو رواية، أو مقالة، أن تبدأ بمثل هذا الفعل؟

ب- ثمّ إنّ القائل، الذي يَأمر بالقراءة، غير مذكور، طبعاً هذه المسألة لم تعد تشكّل لدينا اليوم، نحن المسلمين، أيّة مشكلة، فكلّنا يعرف أنّ الله تعالى هو الآمر، ولكنّ الجاهليّ الذي سمعه لأوّل مرّة سيواجه سؤالاً حقيقيّاً وهو يحاول اكتشاف طبيعة الآمر المختفي وراء الفعل.

ت- وللسبب نفسه لا بدّ للسامع أن يتساءل بعد ذلك أيضاً: ومن المخاطَب المجهول أو المختفي الذي يُؤمر بالقراءة من غير أن يتمّ ذكره أو تحديده؟

ث- ومرّةً ثالثةً سيتساءل السامع بعد ذلك: وماذا يقرأ؟ أين المفعول به، أو ما يمكن أن يحلّ محلّ المفعول به؟

جـ- فكيف لو عرفنا أنّ اللفظ لم يُستعمل في الشعر الجاهلي بهذا المعنى القرآنيّ، وقد استعمله العرب آنذاك بمعنى (الحَمْل)، كقول عمرو بن كلثوم (ت٣٩ ق.هـ):

ذِراعَيْ عَيْطَلٍ أَدْماءَ بِكْرٍ هَجانِ اللونِ لم تَقْرَأْ جَنينا

أي (لم تَحمِل). ويمتّ المعنى الجاهليّ بصلةٍ إلى الاستعمال القرآنيّ الآخر لهذا الجذر وهو (القُرْء) وقد جاء بمعنى (الطُهر من الحيض)، وهو من (أَقْرَأتِ المرأة) إذا حاضت ﴿ وَٱلْمُطَلَّقَٰتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَٰثَةَ قُرُوٓءٍ ﴾ [البقرة: ٢٢٨].

ثمّ عرف العرب الفعل بعد ذلك بمعنى (إلقاء السلام) كما في قول شُريح بن حوّاس (ت؟):

اِقرأْ على عَمْرِو السلامَ وقُلْ لهُ ما بالكرامةِ والهَـوانِ خَفـاءُ

لقد استقلّت سورة (العلق) بمرّتين من أصل ثلاث مرّاتٍ تكرّر فيها هذا الفعل في القرآن، ولكن ما يميّزه في هذه السورة أنّه، في المرّتين، لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، على حين تعدّى إليه في الحالة الثالثة، وكذلك في جميع اشتقاقاته الاثني عشر التي وردت في القرآن، ومنها قوله تعالى:

- ﴿ فَإِذَا قَرَأْتَ ٱلْقُرْءَانَ فَٱسْتَعِذْ بِٱللَّهِ مِنَ ٱلشَّيْطَٰنِ ٱلرَّجِيمِ ﴾ [النحل: ٩٨]
- ﴿ فَإِذَا قَرَأْنَٰهُ فَٱتَّبِعْ قُرْءَانَهُۥ ﴾ [القيامة: ١٨]
- ﴿ ٱقْرَأْ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفْسِكَ ٱلْيَوْمَ عَلَيْكَ حَسِيبًا ﴾ [الإسراء: ١٤]
- ﴿ فَٱقْرَءُوا۟ مَا تَيَسَّرَ مِنَ ٱلْقُرْءَانِ ﴾ [المزّمّل: ٢٠]

ويختلف وضع الفعل (اقرأ) هنا عن وضع الفعل (قل) في مطالع السور الأخرى، بأنّ هذا الافتتاح المتفرّد للسورة يقتصر عليها وحدها، فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٢- علَق:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ إلاّ بمعنى (الدم):

تَمشـي بهـا أَدَمٌ كأنّ رِحالَهـا عَلَقٌ هُرِيْقَ على مُتونِ صَوارِ

النابغة الذبيانيّ (ت١٨ ق.ه)

تَركنـاهُ يَخِـــرُّ على يديـــهِ يَمُجُّ عليهـما عَلَقَ الوَتِيـــنِ

عبد مُناف الهُذَليّ (ت؟)

وهو بعيدٌ عن المعنى القرآنيّ الذي يقتصر، في مواقعه الستّة، على وصف مرحلة الخَلق التي تلي مرحلة النطفة:

- ﴿فَإِنَّا خَلَقْنَـٰكُم مِّن تُرَابٍ ثُمَّ مِن نُّطْفَةٍ ثُمَّ مِنْ عَلَقَةٍ﴾ [الحجّ: ٥]
- ﴿ ثُمَّ خَلَقْنَا ٱلنُّطْفَةَ عَلَقَةً فَخَلَقْنَا ٱلْعَلَقَةَ مُضْغَـةً ﴾ [المؤمنون: ١٤]

وتنفرد السورة باسم الجنس هذا، رغم أنّ اللفظ يتكرّر في القرآن ٥ مرّاتٍ أخرى ولكن في صيغة المفرد (علَقَة).

٣- القلم:

من السهل علينا اليوم أن نفهم معنى لفظ (القلم)، وربّما كان من السهل على العربيّ الأوّل أن يفهمه أيضاً، ولا سيّما أنّنا نجد اللفظ مرّةً واحدةً على الأقلّ في الشعر الجاهليّ عند المرقِّش الأكبر (ت٧٢ ق.ه):

الدّارُ قَفْرٌ والرّســـومُ كما رَقَّشَ في ظَهْـرِ الأديمِ قَلَـمْ

ولكن سيكون من الصعب على ذلك العربيّ، وعلينا نحن اليوم على السواء، إدراك المعنى الحقيقيّ لهذا "القلم الإلهيّ" وكيف تمّ تعليمُنا به، وهل هو قلمٌ حقيقيٌّ أم مجازيّ؟ إنّه ولا شكّ لفظٌ قرآنيّ الاستعمال، وظلّ، بهذا المعنى، مختصّاً بالقرآن حتّى الآن. وربّما كان اللفظ المشابه الآخر، والوحيد في القرآن، المذكور

في سورة (القلم)؛ هو نفسه هذا القلم الإلهيّ؛ بحيث نجده تعالى يُقسم به، ويقسم بما يكتبه أيضاً:

- ﴿ نٓۚ وَٱلۡقَلَمِ وَمَا يَسۡطُرُونَ ﴾ [القلم: ١]

٤ إلى ٦- كلاّ [مكرّر ٣ مرّات]:

سبق أن تحدّثنا مطوّلاً في سورة (الهُمَزة) عن تفرّد الاستعمال القرآنيّ لهذا اللفظ واختلافه عن استعمالات العرب. لقد اقتصر عندهم على معنى النفي أو تأكيد النفي، ولم يعرفوه بمعنى الإثبات أو التحذير أو النهي؛ كما هو في الاستعمالات القرآنيّة الثلاثة التي وردت في هذه السورة.

٧- الرُّجعَى:

لم يعرف الشعر الجاهليّ هذا اللفظ، ولم يعرفه الحديث الشريف كذلك إلاّ في سياق التعليق على هذا اللفظ، ثمّ إنّه يقتصر على هذه السورة وحدها دون باقي سوَر القرآن الكريم.

٨- التقوى:

يرد هذا اللفظ مع مشتقّاته في القرآن الكريم ٢٦١ مرّةً، ثمّ لا نجده في الشعر الجاهليّ إلاّ مرّةً واحدةً عند زهير بن أبي سُلمى (ت١٣ ق.هـ) حيث يقول:

ومِن ضريبته التقوَى ويَعصِمُهُ مِن سَيّئِ العَثَراتِ اللهُ والرَّحِمُ

ومن حقّنا أن نبدي شكّنا الصريح في نسبة هذا البيت إلى زهير، ليس لانفراده بهذا اللفظ فحسب، على كثرة استعماله القرآنيّ، بل لما في البيت من الروح الإسلاميّة الواضحة، ولما يتضمّنه من الألفاظ القرآنيّة الأخرى مثل (يعصم) و (الرحِم).

٩- كَذَّب:

سبق أن أوضحنا في دراستنا لسورة (الماعون) أنّ للقرآن الكريم استعماله الخاصّ لهذا الفعل الذي يختلف به عن استعمال الشعراء الجاهليّين. لقد كان عندهم دائماً بمعنى (كَذَبَ) عكس (صَدَقَ)، أمّا في القرآن الكريم فيأتي بمعنىً مختلفٍ وهو: الرفض وعدم الإيمان أو التصديق. وهو يتعدّى فيه بالباء حين يكون التكذيب لغير الأشخاص (كالدين والرسالة)، ويتعدّى بنفسه حين يكون التكذيب للشخصيّات (كالرسل أو الملائكة).

أمّا في هذه السورة فلم يتعدّ الفعل لا بنفسه ولا بالباء، وهذا يجعله منفتحاً لشتّى أنواع التكذيب.

١٠- تَولَّى:

المعنى الخاصّ لهذا الفعل في القرآن مختلفٌ عن المعنى الذي عرفه الشعر الجاهليّ. لقد عرفه الجاهليّون بمعنى: هرب، أو انهزم، أو ابتعد، كما في الأبيات:

سـائِلِ بِنا حِجْـراً وأجْنـادَهُ ... يـومَ تَوَلَّـى جَمْعُـهُ الجـافِلُ

عَبيد بن الأبرص (ت٢٥ ق.هـ)

شَككْـتُ فؤادَهُ لمّـا تَولّـى ... بصـدرٍ مُثَقَّفٍ ماضـي السِّـنانِ

عنترة (ت٢٢ ق.هـ)

تَوَلَّـى بنـو زَيّانَ عنّـا بفضلِهِم ... وودَّ شَـريـكٌ لو نَسـيرُ فنَبعُدُ

عُروة بن الورد (ت٣ ق.هـ)

ولكنّه يأتي في القرآن غالباً بمعنى (كفر أو رفض الإسلام) كما هو هنا، أو قد يأتي بمعنى (أعرَض أو انصرف) كما في قوله تعالى:

- ﴿ فَتَوَلَّىٰ عَنْهُمْ وَقَالَ يَٰقَوْمِ لَقَدْ أَبْلَغْتُكُمْ رِسَالَةَ رَبِّي ﴾ [الأعراف: ٧٩]
- ﴿ عَبَسَ وَتَوَلَّىٰٓ ۝١ أَن جَآءَهُ ٱلْأَعْمَىٰ ﴾ [عَبَس: ١ - ٢]

وربّما استخدمه القرآن بالمعنى نفسه الذي عرفه الشعر الجاهليّ، كقوله تعالى:

- ﴿ فَلَمَّا كُتِبَ عَلَيْهِمُ ٱلْقِتَالُ تَوَلَّوْاْ إِلَّا قَلِيلًا مِّنْهُمْ ﴾ [البقرة: ٢٤٦]

- ﴿ إِنَّ ٱلَّذِينَ تَوَلَّوْاْ مِنكُمْ يَوْمَ ٱلْتَقَى ٱلْجَمْعَانِ إِنَّمَا ٱسْتَزَلَّهُمُ ٱلشَّيْطَانُ ﴾ [آل عمران: ١٥٥]

أمّا في الحديث الشريف فيَرِد بمعنى (اتّخذ وليّاً) حيناً، وهو معنىً قرآنيٌّ أيضاً، وبمعنى (انصرف) حيناً آخر، كما في قوله (ص):

- .. ومَن تولّى غيرَ مَواليه فعليه مِثلُ ذلك [1]

- إنّ العبدَ إذا وُضعَ في قبرِه وتَولّى عنه أصحابُهُ ..[2]

١١- لَنَسفعاً:

هذا لفظٌ لا يتكرّر، هو أو أيٌّ من مشتقّاته، في غير هذه السورة، وهو لفظٌ قرآنيٌّ بمعنى (الضرب) أو (الجذب) أو (التعذيب) لم يعرفه الشعر الجاهليّ، كما لم يعرفه الحديث النبويّ مطلقاً.

وممّا يزيده خصوصيّةً مجيء نون التوكيد الخفيفة فيه بصورة (ألِف)، ممّا لم يعرفه الشعر الجاهليّ ولا الحديث الشريف، ولا تراثنا اللغويّ حتّى الآن.

١٢- ١٣- ناصِيَة [مكرّر]:

لم أجد هذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، سواءٌ بالمعنى الحرفيّ المجرّد (شَعر الجبهة) أو بالمعنى القرآنيّ المجازيّ (صاحب الناصية).

١٤- الزبانية:

لا وجود لهذا اللفظ في الشعر الجاهليّ، وأوّل بيتٍ في تراثنا الشعريّ تضمّن هذا اللفظ هو لعبد الله بن الزِّبَعْرَى (ت١٥هـ) يقول فيه:

---

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٣، ص١١٥٧، حديث رقم ٣٠٠١.

(٢) المرجع السابق، ج١، ص٤٦٢، حديث رقم ١٣٠٨.

مَطاعيمُ في القُصوَى مَطاعينُ في الوغَى زَبانِيَةٌ غُلْبٌ عِظامٌ حُلومُها

ولا نجده في الحديث الشريف، إلاّ في سياقٍ قرآنيٍّ يتعلّق بهذه السورة، ولا يتكرّر في القرآن، ولا أيٌّ من مشتقّاته.

١٥- واسجُد:

من الطريف حقّاً ألاّ نجد هذا اللفظ، أو أيّاً من اشتقاقاته، عند الشعراء الجاهليّين، ثمّ نجده ثلاث مرّاتٍ عند شاعرنا الأسطورة: عنترة (ت٢٢ ق.هـ)، وذلك في ثلاثة أبياتٍ نحتفظ، كالعادة، بشكّنا في صحّة نسبتها إليه:

بصارم حيثُما جَرَّدْتُهُ سَجَدَتْ لهُ جَبابِرةُ الأَعجام والعَرَبِ
سَجَدَتْ تُعَظِّمُ رَبَّها فتمايَلَتْ لِجَلالِـــها أربابُنا العُظَمـــاءُ
شَمْسٌ إذا طَلَعَتْ سَجَدْتُ جَلالةً لِجَمالِها، وجَلا الظَلامَ طُلوعُها

ومن الواضح لكلّ ذي نظرةٍ أدبيّةٍ نقديّة، ومن خلال روح الأبيات الثلاثة وصياغتها وألفاظها ومعانيها، أنّ أيّاً منها لا يمكن أن ينتمي إلى فترة ما قبل نزول القرآن الكريم، بل إنّها تتأخّر، كما أرجّح، حتّى عن العصر الأمويّ والعصر العبّاسيّ (الأوّل) على الأقلّ.

١٦- واقتَرِبْ:

يتكرّر ذكر هذا الفعل في القرآن، بصيغه المختلفة، خمس مرّاتٍ، وباستثناء هذه الآية، فإنّ جميع الآيات الأربع الأخرى يحمل فيها الفعل معنىً زمنيّاً، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ ٱقْتَرَبَ لِلنَّاسِ حِسَابُهُمْ وَهُمْ فِي غَفْلَةٍ مُّعْرِضُونَ ﴾ [الأنبياء: ١]
- ﴿ ٱقْتَرَبَتِ ٱلسَّاعَةُ وَٱنشَقَّ ٱلْقَمَرُ ﴾ [القمر: ١]

والمعنى الآخر الذي يحمله هذا الفعل عادةً في استعمالاتنا البشريّة، إضافةً إلى المعنى الزمانيّ، هو المعنى المكانيّ، ولكنّه في الآية ينفرد بمعنىً ليس بالزمانيّ

ولا المكانيّ، في أرجح الأقوال، إنّه الاقتراب الروحيّ من الله من خلال السجود له والخضوع إليه والاستسلام لمشيئته.

ثانياً: الصيغ اللغويّة والعلاقات الداخليّة

١- اِقرأ باسمِ:

إنّ تعدّي الفعل (اقرأ) بالباء مع حذف مفعوله حالةٌ لغويّةٌ نادرةٌ لا أعرفها تكرّرت في تراثنا، ولا في القرآن الكريم نفسه. ففي الحالة الوحيدة الأخرى التي استخدم بها القرآن الفعل (اِقرأ) خارج هذه السورة تعدّى الفعل إلى مفعوله بنفسه، وذلك في قوله تعالى:

- ﴿ ٱقۡرَأۡ كِتَٰبَكَ كَفَىٰ بِنَفۡسِكَ ٱلۡيَوۡمَ عَلَيۡكَ حَسِيبٗا ﴾ [الإسراء: ١٤]

أمّا في الحديث الشريف فيتعدّى الفعل بالباء في حالةٍ معيّنةٍ واحدة: إذا كان هذا الفعل مختصّاً بقراءة القرآن الكريم دون غيره، وهذا، على أيّة حال، يخالف بوضوح الاستعمال القرآنيّ، كما في الأحاديث:

- .. يا مُعاذُ، أفَتّانٌ أنت؟ اِقرأ بسورةِ كذا وسورةِ كذا[١]

- .. اِقرأ بهما كلّما نِمتَ وقُمتَ[٢]

ويتّضح لنا الخلاف بين الاستعمالين القرآنيّ والنبويّ حين يتعدّى الفعل بالباء؛ لو حاولنا حذف حرف الجرّ بعدهما؛ إذ نستطيع أن نقول في الأحاديث أعلاه: اقرأ سورة كذا، واقرأهما، من غير أن يصيب المعنى في الأحاديث الثلاثة أيّ خلل، ولكنّنا لا نستطيع أن نفعل هذا مع الآية القرآنيّة من غير إخلالٍ بالمعنى، لأنّها ستصبح: اقرأ اسمَ ربّك، وليس ذلك هو المقصود بالآية.

---

(١) البيهقي، **سنن البيهقي الكبرى**، مرجع سابق، ج٣، ص٨٥، حديث رقم ٤٨٧٩.

(٢) النسائي، **المجتبى من السنن**، مرجع سابق، ج٨، ص٢٥٣، حديث رقم ٥٤٣٧.

٢- باسمِ ربِّك:

الغريب في هذا التعبير أنّه، على خصوصيّته القرآنيّة الشديدة، يتكرّر، هكذا بإضافة (اسم) إلى (ربّ)، ٩ مرّات في القرآن، ولكنْ ليس قبل السورة رقم ٥٥ (الرحمن)، فاستعماله يقتصر على الأجزاء الأربعة الأخيرة من القرآن؛ وتخلو الأجزاء الستّة والعشرون الأولى منه تماماً. ولا نجد التعبير في الشعر الجاهليّ، ولا في الحديث النبويّ.

ولكنّ الأغرب من ذلك أنّ اللفظ (اسم) كتب في حالاته التسع كلّها بالألف، هكذا: (بِاسْم)، فإذا أضيف إلى لفظ (الله) على مدى الأجزاء الثلاثين جميعاً -ومنها مَطالع السوَر (المجموع ١١٥ مرّةً)- فإنّه يُكتب دائماً بغير ألفٍ (بِسْم):

- ﴿ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ۝١ ٱلْحَمْدُ لِلَّهِ رَبِّ ٱلْعَٰلَمِينَ ﴾ [الفاتحة: ١ - ٢]
- ﴿ وَقَالَ ٱرْكَبُوا۟ فِيهَا بِسْمِ ٱللَّهِ مَجْرٖىٰهَا وَمُرْسَىٰهَآ ﴾ [هود: ٤١]
- ﴿ إِنَّهُۥ مِن سُلَيْمَٰنَ وَإِنَّهُۥ بِسْمِ ٱللَّهِ ٱلرَّحْمَٰنِ ٱلرَّحِيمِ ﴾ [النمل: ٣٠]

وإلى جانب ذلك؛ فإنّ هذا هو الموضع الوحيد في القرآن الكريم الذي لا يُضمَر فيه الفعل العامل بالجارّ والمجرور: (بِاسْم)، بل يظهر متقدّماً عليه: ﴿ٱقْرَأْ بِٱسْمِ﴾. فالفعل يختفي عادةً قبل التسمية فيقدّرونه بقولهم: ابدأ بِاسْم، أو: افعلْ بِاسْم. ويفسّر الزمخشريّ ظهور الفعل في هذه الآية وتقدّمه على التسمية بأنّها أوّل آيةٍ نزلت من القرآن فكان تقديم الأمر بالقراءة فيها أهمّ. وقد فصّل ابن هشام الأنصاريّ القول في ذلك عند حديثه عن (التقدير والمقدّر) في مصنّفه (مغني اللبيب عن كتب الأعاريب).[1]

أمّا إضافة (اسم) إلى (ربّ) ثمّ إضافة (ربّ) إلى الضمير (الكاف) بدلاً من أن يقال (بسم الله) أو (باسم الربّ) فلعلّه أريد به والله أعلم، في هذه المرحلة الأوّليّة

(١) ابن هشام الأنصاريّ، **مغني اللبيب عن كتب الأعاريب**، مرجع سابق، ص٨٠٠.

جدّاً من التكليف بالرسالة، أن يكون المرسِل أكثر وضوحاً وتحديداً أمام المرسَل إليه وأمام من سيبلّغهم الرسالة بعد ذلك، لأنّ في لفظ (الرب) معنىً محدّداً هو السيادة المطلقة والامتلاك الكلّيّ، وهذا لا يتّضح في لفظ (الله) وحده. ثمّ إنّ في إضافة اللفظ (ربّ) إلى الضمير الكاف العائد على الرسول ﷺ مزيداً من التعريف لطبيعة المرسِل، ومزيداً من الحميميّة في التعبير عن قربه إلى نبيّه المرسَل.

٣- خَلَق:

ورد الفعل (خلق) في صيغِه المختلفة (١٨٤) مرّةً في القرآن، تعدّى فيها جميعاً إلاّ في هذه الآية من سورة (العلق) وفي آيتين أُخريين هما:

- ﴿ ثُمَّ كَانَ عَلَقَةً فَخَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [القيامة: ٣٨]
- ﴿ ٱلَّذِى خَلَقَ فَسَوَّىٰ ﴾ [الأعلى: ٢]

ولا يتعدّى الفعل في القرآن إذا سبقه اسمٌ موصولٌ، وهو، خلافاً لما في الآيات الثلاث، أمرٌ بدهيٌّ، لأنّ الاسم الموصول هو بمثابة مفعولٍ به في المعنى، كما يمكن أن نتحقّق من قوله تعالى:

- ﴿ بَلْ أَنتُم بَشَرٌ مِّمَّنْ خَلَقَ ﴾ [المائدة: ١٨]
- ﴿ وَٱللَّهُ جَعَلَ لَكُم مِّمَّا خَلَقَ ظِلَٰلًا ﴾ [النحل: ٨١]
- ﴿ إِذًا لَّذَهَبَ كُلُّ إِلَٰهٍۭ بِمَا خَلَقَ ﴾ [المؤمنون: ٩١]
- ﴿ ذَرْنِى وَمَنْ خَلَقْتُ وَحِيدًا ﴾ [المدّثر: ١١]

ومن السهل أن نلاحظ أنّ أسماء الموصول التي سبقت الفعل (خلق) في الآيات الأربع (ممّن – ممّا – بِما – ومَن) قامت مقام مفعولٍ به متقدّمٍ لهذا الفعل. ولا نجد الفعل بالاستعمال القرآني في الشعر الجاهليّ.

٤- خَلَق. خَلَق:

تستقلّ السورة بهذه الصياغة المتفرّدة في تراثنا، وفي القرآن الكريم، حين يتوالى فيها الفعلُ نفسه مرّتين من غير فاصل، رغم ورود الفعلين في آيتين منفصلتين.

٥- خَلَقَ الإنسان:

لو سمعت سيّداً يقول لخادمه: اُذكر فضل سيّدك عليك، لأنّه هو ... فكيف تتوقّع أن تكون تتمّة حديث السيّد مع خادمه؟ أهكذا:

الذي منح الناس بيوتاً وطعاماً وأموالاً؟ أم هكذا:

الذي منحك بيتاً وطعاماً ومالاً؟

لا شكّ أنّنا سنتوقّع الخيار الثاني، لأنّ الحديث توجّه منذ البداية إلى شخصٍ مفردٍ يخاطبه: اُذكر .. سيّدك .. عليك ..، ولكنّه تعالى، وهو يخاطب نبيّه الكريم لأوّل مرّة، انتقل فجأةً من مخاطبته شخصيّاً: اِقرأْ .. ربِّك .. إلى حديثٍ عامٍّ عن الناس جميعاً: خَلقَ الإنسانَ .. وهو من الالتفات القرآنيّ الذي لم تعتدْه الأذن العربيّة من قبل، كما بيّنّا في الجزء الأوّل عند حديثنا عن فنّ الالتفات في القرآن الكريم.

٦- خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

سيُواجه العربيَّ الأوّل الذي سمع هذه الآية مفاجأتان:

الأولى: الإثارة الخياليّة الكامنة في الصورة الجديدة التي شبّه فيها القرآن التكوين الأوّل للإنسان، وهو ما يزال في الساعات الأولى من تشكّله في رحِم أمّه، بعلَقة الدم المتخثّر.

والثانية: الإثارة الفكريّة التي ستُحْدثها الصورة في ذهنه وهي تشرح له لأوّل مرّةٍ، وفي تقريرٍ طبّيٍّ إلهيٍّ سابقٍ لعصره، تسلسُلَ خَلْقه العجيب، حين كان في

الأصل مجرّد "علقةٍ" صغيرة الشأن، في مكانٍ قليل الشأن، ثمّ تخلّقت هذه العلقة، بقدرة قادرٍ عظيم قويّ، لتكون جنيناً، ثمّ ما يلبث هذا الجنين الضعيف أن يخرج إلى الوجود ليكوّن إنساناً قويّاً سويّاً.

٧- اقرأ وربُّك:

للمرّة الثانية يتكرّر هذا الفعل في السورة، ومرّةً أخرى يَلزم الفعلُ فاعله فلا يتعدّى إلى مفعولٍ به، وهي حالةٌ مختصّةٌ بالقرآن، كما رأينا، بل مختصّةٌ بهذه السورة وحدها فلا تتكرّر في غيرها.

٨- اِقرأ وربُّك:

ومرّةً أخرى، تنفرد السورة بهذا التعبير القرآنيّ فلا يتكرّر في مكانٍ آخر، ولا نجده في تراثنا العربيّ قبل الإسلام أو بعده، ويخلو منه تماماً الحديث الشريف.

٩- وربُّكَ الأكرم:

لو أردنا أن نُلحق بالمبتدأ خبراً هو في حقيقته صفةٌ نريد أن ننسبها إليه لقلنا على سبيل المثال:

هذا المنظرُ رائعٌ، أو:

تلك القبّة عاليةٌ، أو:

ذلك الرجلُ كريمٌ

أمّا لو اخترنا أن نخبِر عن هذه الأشياء باسم تفضيلٍ معرّفٍ (بال) لنفضّله بذلك على غيره من أشباهه فسوف نقول:

هذا المنظرُ هو الأروعُ (بين المناظر)

تلك القُبَّةُ هي الأعلى (بين القِباب)

ذلك الرجلُ هو الأكرمُ (بين الرجال)

فإن استغنينا عن الضمير (هو أو هي) في وسط الجملة، فقلنا:

هذا المنظرُ الأروعُ

تلك القبّةُ الأعلى

ذلك الرجلُ الأكرمُ

لذهب الذهن بشكلٍ تلقائيٍّ إلى تغيير إعرابِ ما كان خبراً في الجمل الأولى (الأروع، الأعلى، الأكرم)، ليصبح في الصيغة الجديدة صفةً للخبر وليس الخبر نفسَه، فتكون أسماء الإشارة (هذا، تلك، ذلك) هي المبتدأ، ويصبح ما بعدها (المنظر، القُبّة، الرجل) خبراً لها، أمّا ما يلحق بالخبر فلن يعدو أكثر من صفةٍ لهذا الخبر، وهو أقرب ما يكون لقولنا:

هذا منظرٌ رائعٌ

تلك قُبّةٌ عاليةٌ

ذلك رجلٌ كريمٌ

ولكنّ الآية –خلافاً لطرائق تعبيرنا– استغنت عن الضمير (هو) فلم تقل (وربُّكَ هو الأكرم)، ومع ذلك ظلّ الوصف (الأكرمُ) فيها خبراً للمبتدأ (ربُّ) وليس صفةً له، ولو جعلناه صفةً لظلّ المبتدأ (ربُّك) يبحث عن خبرٍ وهذا غير جائز.

١٠– وربُّكَ الأكرم:

يأتي استعمال اسم التفضيل، الذي يكون على وزن (أفعل) عادةً، في سياق الحديث عن مجموعة أشياءٍ أو أفرادٍ يتفوّق أحدهم في أمرٍ ما على سائرهم، فنقول مثلاً:

التلاميذ أذكياءٌ ورياضٌ هو الأذكى

القصص جميلةٌ وتلك القصّة هي الأجمل

ولكنّ اللفظ (الأكرم) في الآية لم يقترن بأفرادٍ آخرين وردوا في السياق، فهو اسمٌ استُخدم لتفضيل (ربّك) على مفضَّلاتٍ أو مفضَّلين لم يُذكروا أبداً مع مَن فُضِّل عليهم، وهذا من غير شكّ سيوقد خيال العربيّ الذي سمع الآية حال تنزّلها، ويتركه في تفكّرٍ وتدبّرٍ عميقين.

١١- الأكرم الذي عَلَّم:

إنّ في مجيء لفظ (الأكرم) قبل الآية ﴿ٱلَّذِى عَلَّمَ بِٱلْقَلَمِ﴾ مفارقةً غير متوقّعةٍ للسامع الذي يسمع السورة لأوّل مرّة. فبعد (الكرَم) نتوقّع أن يكون التفضيل فيما اعتاده الناس من أنواع الكرم: الهدايا، المال، الطعام، الكساء، الراحلة، المسكن، ولكنّ العطاء هنا يأتي مختلفاً تماماً عن كلّ التوقعات، ومن نوعٍ لم يكن العرب أصلاً، ليظنّوا أنّه يدخل في باب الكرم: التعليم بالقلم! وفي هذا ما يكفي من إحداث عنصر الجدّة والمفاجأة في نفس العربيّ الأوّل.

أمّا لو ذهبنا إلى أنّ معنى الآيتين هو: أنّ الله هو أكرم من علّم بالقلم، فسوف نكون أمام مفاجأةٍ من نوعٍ آخر. فنحن عندما نفضّل إنساناً على غيره في صفةٍ من الصفات أو مهنةٍ من المهن فإنّنا نقول شيئاً من هذا القبيل:

هذا أفضلُ مَن عَلّم الحساب، أو:

جارُنا أكثرُ مَن يُؤتمَن على سرٍّ، أو:

موظَّفُكم أنجحُ مَن كَتب الرسائل..

ولا نقول:

هذا الأفضلُ الذي علّم الحساب، أو:

جارُنا الأكثرُ الذي يُؤتمَن على سرٍّ، أو:

موظَّفُكم الأنجحُ الذي كَتب الرسائل

ولكنّ السورة تقول:

﴿وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ۝٣ ٱلَّذِي عَلَّمَ بِٱلۡقَلَمِ ۝٤..﴾

فتبيّن الفرق، حيثما نقّلت نظرك، بين لغتنا ولغة القرآن الكريم.

١٢- عَلّم:

لم يعتد العرب في الماضي أن يستعملوا الفعل (عَلّم) من غير تعديته إلى مفعولين، فقالوا:

مَن علّمني حرفاً كنتُ له عبداً

أُعلِّمُه الرمايةَ كلَّ يومٍ

وقد علَّمتُهُ نَظْمَ القوافي

ورغم أنّ الفعل قد تعدّى إلى مفعولين حقّاً في الآية الخامسة ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾ فإنّه، ولأسبابٍ عديدةٍ؛ ربّما كان أحدها تكراره مرّتين، لم يحصل في الآية الرابعة على أيّ مفعولٍ به، رغم أنّه تعدّى إلى لفظ (القلم) بحرف الباء: (بالقلم)، فخرج بهذا عن الاستعمال المألوف لدى العربيّ الأوّل.

وقد غدا استعمال الفعل من غير تعديةٍ مألوفاً لدينا اليوم، ولكن إذا استُخدم في سياق (ممارسة مهنة التعليم) فنحن نقول:

عَلَّمتُ في الجامعة، و:

يعلّم باللغتين الإنجليزيّة والعربيّة، و:

علَّمني على ضوء الشمعة..

١٣- عَلَّمَ بالقلم:

نقول عادةً: (كتبتُ بالقلم)، ولم يقل أحدٌ، لا في الماضي ولا في الحاضر: (علَّمتُ بالقلم) وهو استعمالٌ ما يزال حتّى اليوم مختصّاً بالقرآن الكريم وحده، فلا

obeikan.com

يخبر أحدنا عن نفسه بقوله: أنا أعلّم بالقلم، رغم أنّ شيوع القلم واستخداماته قد أصبحت اليوم أكثر من أن تُحصى، على خلاف ما كان عليه الأمر في فترة نزول الوحي حين كان العرب لا يكادون يعرفون شيئاً اسمه القلم أو الكتابة.

١٤- عَلَّم الإنسان:

إذا افترضنا أنّ الفعل (علّم) الثاني هو بدلٌ من الفعل (علّم) الأوّل، كما تذهب أقرب التفسيرات إلى المنطق، فبدهيٌّ أن نتوقع أن يكون التعبير، لو أخذنا بتقاليدنا اللغويّة البشريّة، على الشكل التالي:

الذي علّم الإنسانَ بالقلم، علّمه ما لم يعلم

هل لاحظتم الفرق بين التعبير القرآنيّ والتعبير البشري؟ وهل لاحظتم كيف داخلتُ بين العبارتين القرآنيّتين والعبارتين البشريّتين، تقديماً وتأخيراً وحذفاً، حتّى ظهرتا في شكلهما الجديد بعيداً عن الشكل اللغويّ المألوف؟ طبعاً أهمّ ما يلفتنا في هذا التغيير هو تعدية الفعل الأوّل في جملتنا البشريّة إلى مفعوله بشكلٍ صريح (علّم الإنسان) وإضمار مفعول الثاني بتحويله إلى ضميرٍ للغائب (علّمه)، وهو العكس تماماً لما جاءت عليه العبارة القرآنيّة، إذ اختفى فيها مفعول الفعل الأوّل، أو بالأحرى مفعولاه، وظهر مفعولا الفعل الثاني.

وبدهيٌّ ألاّ نجد هذا التعبير في الحديث الشريف.

١٥- عَلّم الإنسان:

إنّه تعبيرٌ فريدٌ لا نجده، ولا ينبغي أن نجده، إلاّ في القرآن الكريم. والمطلوب أن نضع أنفسنا الآن مكان العربيّ الأوّل الذي ربّما عرف أوصافاً كثيرةً لله: فهو الذي يخلق، ويرزق، ويقدّر الأقدار، ويُهلك، ويحيي، ويميت، ولكن "أن يُعلِّم" فهذا كان ما يزال بعيداً عن تصوّر الجاهليّ.

١٦- ما لم يَعلم:

هذا التركيب لم يعرفه الشعر الجاهليّ، ولا الحديث الشريف، ثمّ إنّ استعماله، إلى ذلك، يقتصر على هذه السورة، فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

١٧ إلى ١٩- كلاّ إنّ، كلاّ لئن، كلاّ لا:

من بين ٣٣ حالةً استخدم فيها القرآن الكريم الأداة (كلاّ)؛ يتكرّر التركيب ﴿كَلَّآ إِنَّ﴾ ١١ مرَّة، والتركيب (كلاّ لا) مرّتين، أمّا التركيب ﴿كَلَّا لَئِن﴾ فيقتصر على هذه السورة وحدها. وينحصر استعمال التراكيب الثلاثة بالقرآن فلا نجد أيًّا منها في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، لا شعراً ولا نثراً، ولا وجود لها في الحديث الشريف أيضاً.

٢٠- لَيَطغَى:

اعتادت العرب أن تقول:

إنّه لَيَقْريْ الضيفَ، و:

إنّني لأعلمُ أنّك قادمٌ، و:

إنّي لأخشى عليكم الغوائل،

فتُزحلِق "لام التوكيد" هذه من اسم (إنّ) "التوكيديّة" إلى خبرها لتجنّب اجتماع توكيدين، فإذا جاء الخبر فعلاً، وهو مضارعٌ عادةً، فإنّه لا يكتفي بنفسه إذ لا بدّ له من ملحقاتٍ تلحق به، كالفاعل والمفعول به أو ما يقوم مقامهما، وهذا شأن العرب دائماً مع الفعل المرتبط باللام المزحلقة إذا كان مبنيّاً للمعلوم، كما في الجمل الثلاث المذكورة، وكما في الأبيات:

إنّي لأَصْـــرِمُ مَن يُصارمُني وأُجِدُّ وَصْلَ مَنِ ابتغَى وَصْلي

امرؤ القيس (ت٨٠ ق.هـ)

إنّي لأَعلَـمُ أنّ حتْفي في التي أخشَى، لدى الشُّربِ القليلِ المُنزِفِ
الشَّنفرَى (ت٧٠ ق.ه)

وإنّيْ لأَخْزَى أنْ تُرَى بيَ بِطْنةٌ وجاراتُ بيتيْ طاوياتٌ ونُحَّفُ
حاتم الطائيّ (ت٤٦ ق.ه)

إنّي لأعجَبُ كيف يَنظُرُ صورتيْ يـومَ القتـالِ مُبـارِزٌ ويعيشُ
عنترة (ت٢٢ ق.ه)

وإنّي لآتي الأرضَ ما ليَ حاجةٌ سـواكِ ولا دَينٌ بها أنا طالِبُ
الأخضر الفَزاريّ (ت؟ ق.ه)

وهكذا في الحديث الشريف أيضاً:

- وإنّه ليَسمعُ خَفْقَ نِعالِهم [١]
- إنّهم لَيَدْعون له ولداً، وإنّه لَيُعافيهِم ويَرزُقُهم[٢]

أمّا الفعل (يَطغى) في الآية فقد تجرّد من هذه الملحقات واكتفى بنفسه مستغنياً عنها، بحيث نستطيع أن نتوقف عنده من غير أن نشعر بضرورة وجود كلام بعده. ولو حاولنا ذلك مع الأمثلة التي أوردناها أعلاه فسنجد أنّنا لا نستطيع التوقّف فيها عند الفعل المرتبط باللام لأنّ المعنى لا يتمّ بغير الكلام الذي يليه. وحاول مثلاً أن تقول مع حاتم الطائيّ (وإنّي لأَخزَى) ثمّ تتوقّف عن الكلام، أو أن تقول مع عنترة: (إنّي لأعجب) ثمّ تكتفي بذلك!

٢١- إنّ الإنسانَ لَيَطغَى:

هذا تعبيرٌ قرآنيٌّ جديد أشبه بالحكمة أو المثل السائر، وهو خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في القرآن، ولا وجود له في تراثنا، ولا في الحديث الشريف.

---

(١) البخاري، صحيح البخاري، مرجع سابق حديث رقم ٣٥٥٨

(٢) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٥، ص٢٢٦٢، حديث رقم ٥٧٤٨.

٢٢- أنْ رآه:

التقدير هنا طبعاً: (لَيطغى لأن رآه، أو: لأنّه رآه، أو: لأنّه رأى نفسه)، فهناك (لامٌ) تعليليّةٌ مقدَّرةٌ محذوفةٌ في الآية، ولا أعرف قبل القرآن، ولا بعده، مَن حَذف لام التعليل الجارّة قبل (أنْ) المصدرية فقال مثلاً:

سَلّمتَ نفسَك أنْ عرفتَ أنّك مقبوضٌ عليك لا محالة

٢٣- رآه:

هذا استعمالٌ قرآنيٌّ فريدٌ ومختصٌّ بهذه السورة وحدها. فالفعل (رأى) هنا بمعنى (ظنّ)، وأباحت العرب لنفسها أن تُسند هذا النوع من الأفعال، التي سمّوها (قلبيّة) -أي (عقليّة) وهي بعكس شبيهتها الأخرى (الحسّية) أي (البصريّة)-، إلى ضمائر المتكلّم أو المخاطَب، فقالوا: رأيتُني عاجزاً، أي: رأيتُ نفسي، بمعنى (ظننتُ نفسي)، وقالوا: متى تُراكَ خارجاً؟ بمعنى (تظنّ نفسَك) ولكنّهم، فيما وجدتُ، لم يُسندوا هذه الأفعال إلى ضمائر الغائب، كما حدث في الآية حين جاء الفاعل المستتر (وتقديره: هو) هو نفسه المفعول به (ضمير الغائب: الهاء)؛ أي: (ظنّ الإنسانُ نفسَه).

حتى ابن خالويه، النحويّ الكبير الذي أباح ذلك، لم يستطع أن يأتي، حين أراد أن يمثّل له، إلاّ بأمثلةٍ استخرجها من الآية نفسها، فربأ بنفسه عن أن يأتي بأمثلةٍ من عنده، فقال: "فإذا ثنّيتَ هذا الحرف قلت: إنّ الإنسانين لَيَطْغَيان أن رَأَياهما استَغنيا، وإنّ الأناسِيّ لَيطغَون أن رأَوهم استَغنَوا، وإنَّكِ لَتَطْغَينَ أن رأيتِكِ استَغنيتِ .."[1]

أمّا الزمخشريّ فحين أراد أن يمثّل من كلام العرب على ما جاء في الآية لم يجد من الأمثلة إلاّ ما أُسنِد إلى ضمير المتكلّم والظاهر، وليس إلى الضمير المستتر والغائب كما هو في الآية، فقال: "والعرب تطرح (النفْس) مِن هذا الجنس

(١) عن الدرويش، **إعراب القرآن الكريم وبيانه**، مرجع سابق، ج٨، ص٣٦٣.

فتقول: رأيتُني وظننتُني وحسبتُني، فقوله ﴿أَن رَّءَاهُ ٱسْتَغْنَىٰٓ﴾ من هذا الباب"[1] والحقّ أنّ مثال الزمخشريّ لا علاقة له بهذا الباب.

٢٤- إنّ إلى ربِّكَ:

نحن نتوقّع، إذا قيل لنا: إنّك لَتطغى إذا رأيتَ نفسك قد أصبحت غنيّاً، أن تكون تتمّة الكلام هكذا:

إذن، فاعلم أنّك راجعٌ إلى ربّك عمّا قريب،

أو تكون على الأقلّ: فاعلم أنّك راجعٌ..

أو على أقلّ الأقلّ: فإنّك راجعٌ..

فترتبط الجملة القرآنيّة السابقة بالجملة الجوابيّة اللاحقة، برابطٍ لغويٍّ هو حرف الفاء: (فإنّ إلى ربّك الرّجعى)، أو بالفاء مع فعلٍ يساعدها: (فاعلم أنّ إلى ربِّك الرّجعى)، أو بهما معاً وبالأداة (إذن) التوضيحيّة المنبِّهة (إذن فاعلم أنّ..). ولكنّ السياق القرآنيّ خلا من أيٍّ من هذه الروابط أو غيرها من الروابط البديلة، وهي ظاهرةٌ من الظواهر القرآنيّة كما عرفنا في سوَرٍ سابقة.

٢٥- إنّ الإنسان.. إنّ إلى ربِّكَ:

هنا أيضاً التفاتٌ قرآنيّ تحوّل فيه الخطاب من صيغة الغائب (هو): ﴿ إِنَّ ٱلْإِنسَٰنَ ﴾ إلى صيغة المخاطَب (أنتَ): ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ ﴾، رغم أنّ محور الحديث ظلّ هو نفسه لم يتغيّر في كلتا الصيغتين: طغيان الإنسان حين يَغنى وتذكيره بحتميّة رجوعه إلى خالقه ومواجهة الحساب هناك.

---

(١) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٢٠.

٢٦- أنْ رآه.. إنّ إلى ربِّك:

وهذا التفاتٌ قرآنيٌّ آخر من صيغة الغائب: (رآه: رأى نفسه) إلى صيغة المخاطب: (ربِّك)، ولو تركنا الأمر إلى لغتنا البشريّة لقلنا -متابعةً لصيغة الغائب التي بدأ بها الكلام-: (إنّ إلى ربّه الرُّجعى).

٢٧- إلى ربِّكَ الرُّجعَى:

هذا النوع من تقديم الخبر وتأخير المبتدأ، مع إطلاق المبتدأ وعدم حصره في شخصٍ أو جماعةٍ أو نوع، أمرٌ تختصّ به لغة القرآن الكريم. فإطلاق لفظ (الرُّجعى) هنا ليشمل كلّ شيء، وعدم تخصيصه، بإضافته إلى اسم آخر مثلاً، كأن نقول: رُجعاك، أو: رُجعانا، أو: رُجعى البشر، خصيصةٌ لغويّةٌ كثيراً ما تتكرّر في مثل هذا النوع من الجمل القرآنيّة التي يتقدّم فيها ما حقّه التأخير، كما في الآيتين التاليتين اللتين نجدهما في سورةٍ صغيرةٍ واحدة:

- ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمُسْتَقَرُّ ﴾ [القيامة: ١٢]
- ﴿ إِلَىٰ رَبِّكَ يَوْمَئِذٍ ٱلْمَسَاقُ ﴾ [القيامة: ٣٠]

٢٨- أرأيتَ .. عبداً:

وهذا التفاتٌ آخر تحوّل فيه الخطاب من صيغة المخاطَب (أنتَ، أي الرسول): (أرأيتَ) إلى صيغة الغائب (هو): (عبداً، أي الرسول أيضاً) رغم أنّ محور الحديث ما يزال واحداً بعينه لم يتغيّر وهو شخص الرسول (ص)، ومن غير هذا الالتفات كنّا نتوقّع أن يكون شكل العبارة هكذا:

أرأيتَ أيّها النبيّ ذلك الذي ينهاكَ إذا صلّيتَ

٢٩- ينهَى. عبداً:

لقد انتهت الآية الأولى عند الفعل (يَنهَى) فتوقّفنا بعده، ثم استُؤنف الحديث في الآية التالية التي بدأت بمفعول ذلك الفعل، وهو فصلٌ غريبٌ وشديدٌ بين

الفعل ومفعوله بجعلهما في وحدتين لغويّتين منفصلتين، وقد أضحى هذا النوع من الفصل ظاهرةً لغويّةً قرآنيّةً واضحة.

٣٠- يَنهى عبداً:

(التجريد) أو (الإطلاق) هو من خصائص التعبير القرآنيّ. فكما أطلق تعالى لفظ (الرُّجْعَى) فلم تُضَف إلى مضافٍ يخصّصها بشخصٍ أو هيئةٍ أو نوعٍ، كذلك أطلق بالتنكير هنا اللفظ (عبداً)، فلم يقل: (العبد) أو (عَبْدَ الله) أو (النبيّ)، ولم يحدّده بقوله مثلاً: (ينهاكَ)، كما سبق أن ذكرنا، رغم أنّ الحديث جاء خطاباً للرسول (ص)، وقد كان (أبو جهلٍ) يؤذيه ويحاول أن يمنعه من الصلاة.

وفي هذا التنكير أو (الإطلاق)، تفخيمٌ لشأن النبيّ (ص)، كما يقول المفسّرون، لأنّه، مع التنكير، معرَّفٌ، ونظيرُه تلك الكنايةُ في الفعل (أنزلناه) من سورة (القَدْر)، حيث حُمِل الضميرُ على القرآن ولم يَسبِق له ذكرٌ، لمكانة القرآن الكريم.

٣١ إلى ٣٣- أرأيتَ [مكرّر ٣ مرّات]:

إنّها حالاتٌ غريبةٌ مختلفةٌ ثلاثٌ لكلمةٍ واحدةٍ في السورة نفسها. فقد استخدم العرب الفعل (أرأيتَ) بمعنى (أخبِرْني)، بحيث يأخذ عندهم مفعولين يغلب أن يكون الثاني منهما جملةً استفهاميّةً، كقول ضمرة النهشليّ (ت؟ ق.هـ):

أرأيتَ إنْ صرخَتْ بليلٍ هامَتِيْ ... وخرجتُ منها بالياً أثوابي
هل تَخْمِشَنْ إبِليْ عليّ وجوهَها ... أمْ تَعْصِبَنَّ رؤوسَها بسِلابِ

أي أخبِرْني إن كانت إبلي ستخمش وجوهَها حزناً عليّ إذا قُتلتُ وصرختْ هامتي فوق قبري[1] فالمفعول الأوّل هو، في المعنى، اللفظ (هامَتي)، أي: (أرأيتَ هامتي لو صرختْ) والمفعول الثاني هو الجملة الاستفهاميّة (هل تخمِشَنْ إبِلي).

---

(١) هي طائرٌ خياليٌّ اعتقد الجاهليّون أنّه يحوم حول قبر القتيل صائحاً (اسقُوني) حتّى يؤخذ بثأره.

ولكنّ الفعل في السورة تقلّب في مواضعه الثلاثة، وبشكلٍ مخالفٍ تماماً للتقاليد اللغويّة العربيّة، بين حالاتٍ ثلاث:

أ – الفعل الأوّل: حُذف مفعوله الثاني، ولكن ذُكر مفعوله الأوّل وهو (الذي): ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى ﴾.

ب – الثاني: حُذف مفعولاه الأوّل والثاني ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ .. ﴾ فلم يظهر أيٌّ منهما في الآية.

ت – الثالث: على عكس الحالة الأولى، حُذف مفعوله الأوّل ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ .. ﴾ واكتُفِي بذكر الثاني، أو ما يحلّ محلّه، وهو الجملة الاستفهاميّة ﴿ أَلَمْ يَعْلَم بِأَنَّ ٱللَّهَ يَرَىٰ ﴾.

ومع تميّز الاستعمال القرآنيّ أصلاً عن الاستعمالات الجاهليّة المحدودة لهذا التركيب، كما سبق أن رأينا في سورة (الماعون)، نجده وقد اختلفت استعمالاته أيضاً في كلّ مرّةٍ من المرّات الثلاث التي يتكرّر بها في هذه السورة.

لقد تعدّى في الأولى صراحةً إلى المفعول به (الذي) فجاء فيها بمعنى: أتُميّز، أو: أأدركتَ؟ على حين لم يتعدّ في الثانية ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَانَ عَلَى ٱلْهُدَىٰٓ ﴾، إلاّ أنّه جاء مع ذلك بالمعنى الأوّل نفسه تقريباً، ولكن مع تأكيد النفي؛ إذ لم يكن في الواقع على هدى. أمّا في الحالة الثالثة ﴿ أَرَءَيْتَ إِن كَذَّبَ وَتَوَلَّىٰٓ ﴾ فجاء أقرب في تركيبه إلى الحالة الثانية، إنّه لم يتعدّ إلى مفعولٍ به، ولكنّه دعّم تأكيد الإثبات هذه المرّة، وليس تأكيد النفي كما في الحالة الثانية، لأنّ أبا جهلٍ كذّب حقّاً وتولّى.

٣٤- عبداً إذا صلّى:

هذا تعبيرٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، بل خاصٌّ بهذه السورة وحدها فلا يتكرّر في بقيّة السوَر.

٣٥- ٣٦- إنْ كان، إنْ كَذَّب:

الأداة (إنْ) في هذين الموقعين تشير إلى الماضي، وليس إلى المستقبل كما هي الحال في بيت النهشليّ الذي أوردناه قبل قليل، فالشاعر يتساءل هناك عمّا يحدث بعد موته (أرأيتَ إنْ صرختْ هامتي)، أي لو حدث أن صرخت الهامة بعد موتي. فلو أرادت العرب الزمن الماضي لم تُلحِق الفعل (أرأيتَ) بالأداة (إنْ)، وهذا ما يفعله النابغة الذبياني (ت١٨ ق.هـ) حيث يقول:

أرأيتَ يومَ عُكاظَ حينَ لَقِيْتَني تحتَ العَجاجِ فما شَقَقْتَ غُباري

أي (أتذْكُر ما حدث ذلك اليوم؟) وهكذا نرى أنّ معنى (إنْ) في الآيتين هنا لا يختلف كثيراً، في بُعده الزمنيّ، عن معنى (إذْ) الظرفيّة التي تشير عادةً إلى الزمن الماضي كما في قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ أَرَءَيْتَ إِذْ أَوَيْنَآ إِلَى ٱلصَّخْرَةِ فَإِنِّى نَسِيتُ ٱلْحُوتَ ﴾ [الكهف: ٦٣]

وهو إذن، استعمالٌ جديدٌ لهذه الأداة لم يعرفه الشعر العربيّ قبل الإسلام. وحين حاول الإمام الفخر الرازي الخروج بتفسيرٍ لهذا المأزق اللغويّ وقع، رحمه الله، في مأزقٍ لغويٍّ آخر حين فسّر (كان) في الآية الأولى بمعنى (صار) فقال:

"يقول الله تعالى: يا محمّد، أرأيتَ إنْ كان هذا الكافر، ولم يقُل (لو كان)، إشارةً إلى المستقبل، كأنّه يقول: أرأيتَ إنْ صار على الهدى واشتغل بأمرِ نفْسه أمَا كان يليق به ذلك إذ هو رجلٌ عاقلٌ ذو ثروة"[١]

فتغدو الآية، بهذا المعنى المقترح، أقرب إلى امتداح أبي جهلٍ منها إلى مهاجمته والتشنيع عليه كما هو الأمر في أصل الآية.

٣٧- على الهدى:

تنفرد سورة (العلَق) بهذا التعبير المتفرّد الذي لم يعرفه الشعر الجاهليّ من قبل، ولم تعرفه أيٌّ من سوَر القرآن الكريم الأخرى. وربّما وجدنا التعبير في بعض الآيات ولكن من غير (الـ) التعريف، كقوله تعالى:

(١) فخر الدين الرازي، **التفسير الكبير**، مرجع سابق، ج١١، ص٢٢٢.

- ﴿ أُوْلَٰٓئِكَ عَلَىٰ هُدًى مِّن رَّبِّهِمْۖ وَأُوْلَٰٓئِكَ هُمُ ٱلْمُفْلِحُونَ ﴾ [البقرة: ٥، ولقمان: ٥]

أمّا قوله تعالى:

- ﴿ وَلَوْ شَآءَ ٱللَّهُ لَجَمَعَهُمْ عَلَى ٱلْهُدَىٰۚ ﴾ [الأنعام: ٣٥]

فشأنه مختلفٌ عن شأن آية (العلَق) لأنّ الأداة (على) فيه جاءت للتعدية لا أكثر، فهي متعلّقةٌ بفعلٍ (جمَعَهم) وليس بالاسم المقدّر خبراً للأداة (كان) كما في آيتنا هنا، أي: (إن كان هو كائناً على الهدى). إنّنا نستطيع مثلاً أن نُحِلّ اسم المفعول (مهتدياً) محلّ شبه الجملة ﴿ عَلَىٰ ٱلْهُدَىٰۚ ﴾ في آية (العلَق) فنقول: (أرأيتَ إن كان مهتدياً) وكذلك في آيتي (البقرة ولقمان) فنقول: (أولئك مهتدون)، ولكنّنا لا نستطيع أن نفعل ذلك مع آية (الأنعام) وإلاّ لأصبحت (لَجمَعَهم مهتدين)، وليس هو المعنى المراد بالآية، وإنّما تعني (لجمَعَهم ليكونوا في اجتماعهم مهتدين) هكذا في المستقبل وليس في الحاضر (الآن) كما هي الحال في الآيات الثلاث.

٣٨- أمرَ بالتقوى:

هذا التعبير خاصٌّ بسورة (العلق) فلا يتكرّر في غيرها من السوَر، وبدهيٌّ ألاّ نجده في الشعر الجاهلي الذي يخلو أصلاً من اللفظ القرآنيّ (التقوى) كما بيّنّا. ولا وجود للتعبير في الحديث الشريف.

٣٩- كَذَّب وتولّى:

رغم أنّ هذا التعبير يتكرّر في القرآن ثلاث مرّاتٍ؛ فإنّه يقتصر على القرآن وحده، ولا نجده في تراثنا العربيّ قبل الإسلام ولا بعده. ولا أثر للتعبير في الحديث الشريف إلاّ في معرض الحديث عن الآية.

٤٠- ألم يَعلمْ بأنّ:

لا وجود لهذا التعبير في الشعر الجاهليّ. ولكنّ تعدّي الفعل (يَعلم) بالباء حالةٌ تكاد تختصّ بها هذه السورة. ففي ٣٨٣ حالةً من أصل ٣٨٥ من الحالات

التي يتكرّر فيها هذا الفعل مع مشتقّاته في القرآن؛ تعدّى دائماً بنفسه من غير الاستعانة بالباء، كما في هذه الآيات:

- ﴿ أَوَلَا يَعْلَمُونَ أَنَّ ٱللَّهَ يَعْلَمُ مَا يُسِرُّونَ وَمَا يُعْلِنُونَ ﴾ [البقرة: ٧٧]
- ﴿ وَعِندَهُۥ مَفَاتِحُ ٱلْغَيْبِ لَا يَعْلَمُهَآ إِلَّا هُوَ ﴾ [الأنعام: ٥٩]
- ﴿ وَٱعْلَمُوٓاْ أَنَّمَا غَنِمْتُم مِّن شَىْءٍ فَأَنَّ لِلَّهِ خُمُسَهُۥ وَلِلرَّسُولِ ﴾ [الأنفال: ٤١]
- ﴿ وَقَالَ فِرْعَوْنُ يَٰٓأَيُّهَا ٱلْمَلَأُ مَا عَلِمْتُ لَكُم مِّنْ إِلَٰهٍ غَيْرِى ﴾ [القَصص: ٣٨]

ويُشارك هذه السورةَ في تعدّي الفعل بالباء موقعٌ واحدٌ آخر في القرآن، وذلك قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ يَٰلَيْتَ قَوْمِى يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى رَبِّى ﴾ [يس: ٢٦ - ٢٧]

وفي لغتنا اليوميّة؛ يغلب أن يتعدّى الفعل بالباء لو كان الحديث عن الماضي، ويتجرّد منها لو كان الحديث عن المستقبل، فنقول عن الماضي مثلاً:

هل علمتَ بما حدث؟ ولكنّنا نقول عن المستقبل:

هل تعلم ما يمكن أن يحدث، ولا نقول:

هل تعلم بماذا سيحدث؟ إلاّ أن يكون الفعل هنا بمعنى (تتنبّأ).

وفي آيَتَي سورة (يس) ينحصر العلم في الزمن الماضي دون الحاضر أو المستقبل كما هو واضح: ﴿ يَعْلَمُونَ ﴿٢٦﴾ بِمَا غَفَرَ لِى ﴾، فالغفران قد وقع ويتمنّى لو أنّ قومه يعلمون بوقوعه. وهكذا في آية سورة (العلق) فالعلم برؤية الله لا بدّ أن يكون سابقاً، ومن ثمّ يصبح الكفر، مع وجود هذا العلم وسبْقِه، سبباً في التشنيع على أبي جهلٍ وعمله.

وللنحويّين وجهات نظرٍ مخالفةٌ لرأينا حول زيادة الباء في مفعول (علم)، وهم يكتفون بالتفريق بين ما يتعدّى من مشتقّات هذا الفعل إلى مفعولٍ واحدٍ

وما يتعدّى إلى مفعولين، فيرجّحون اطّراد زيادة الباء في النوع الأوّل وندرتها في الثاني. أمّا القرآن الكريم فلم يفرّق بين هذين النوعين في تعامله مع الفعل وأسقط الباء في كلتا الحالين، كما هو ظاهرٌ في الآيات التي استشهدنا بها.

٤١- يَرى:

استعمالٌ قرآنيٌّ خاصّ، لقد جرى العرف اللغويّ على أن يتعدّى فعل الرؤية إلى مفعولٍ واحدٍ على الأقلّ، وربّما إلى مفعولين إن كان قلبيّاً -أي بمعنى (ظنّ)- كما سبق أن رأينا، ولكنّ الفعل لم يتعدّ في هذه الآية إلى أيّ مفعول. ورغم أنّه يتكرّر مع مشتقّاته في القرآن مئات المرّات، وتعدّى في معظمها، بطريقةٍ أو بأخرى، إلى مفعول، فإنّه التزم بفاعله ولم يتعدّ إلى أيّ مفعولٍ، أو ما يقوم مقامه، في أربع آياتٍ فحسب، منها هذه الآية.

٤٢- أنّ اللهَ يَرى:

تعبيرٌ قرآنيٌّ خاصّ. وبدهيٌّ ألاّ نجد عند الجاهليّين كثيراً من صفات الله تعالى، رغم أنّ لفظ الجلالة يرِد في أشعارهم ما لا يقلّ عن (٢٥٣) مرّةً، ولكنّ بعض هذه الأشعار تتحدّث عن "رؤية" الله تعالى، كما في قول الفَنْد الزّمانيّ (ت٩٥ ق.هـ):

قــد رآنــا اللهُ أَوْلَى منكــمُ باليــدِ العُليــا ولله الخِيــارْ

ومع ذلك، فإنّ التعبير القرآنيّ يطلق رؤية الله تعالى؛ إذ لم يخصّصها بتعدية الفعل إلى مفعولٍ محدِّد ما، كما رأينا، ممّا جعل التعبير مميَّزاً وخاصّاً بالقرآن الكريم.

٤٣- لم ينتهِ:

يميّز هذا الفعلَ هنا أيضاً إطلاقيّتُه، فهو لم يتعدَّ، كما أَلِفناه، إلى ما هو مطلوبٌ أن يُنتَهَى عنه، وقد اعتادت العرب أن تُعدّيه دائماً بحرف الجرّ (عن)، كما في قول الأسود بن يَعْفُرَ النهشليّ (ت٢٣ ق.هـ):

لا يَنتهُون الدَّهر عن مولىً لنا ....

ولكنّ القرآن الكريم يخالف هذا العرف اللغوي في ١٤ موضعاً على الأقلّ من مختلف السوَر، ومنها هذه السورة.

٤٤- لئنْ لم ينتهِ:

يتعدّد ورود التركيب ﴿ لَئِن لَّمْ ﴾ في الشعر الجاهليّ، ولكنّنا لا نجد فيه، ولا فيما بعده من الشعر، هذا التعبير الزجريّ ﴿ لَئِن لَّمْ يَنتَهِ﴾ رغم وروده ٦ مرّاتٍ في القرآن الكريم بصيغٍ مختلفة، منها قوله تعالى:

- ﴿ قَالُواْ لَئِن لَّمْ تَنتَهِ يَٰنُوحُ لَتَكُونَنَّ مِنَ ٱلْمَرْجُومِينَ ﴾ [الشعراء: ١١٦]

- ﴿ لَئِن لَّمْ تَنتَهُواْ لَنَرْجُمَنَّكُمْ وَلَيَمَسَّنَّكُم مِّنَّا عَذَابٌ أَلِيمٌ ﴾ [يس: ١٨]

ولا وجود لهذا التعبير في الحديث النبويّ.

٤٥ - لنَسفَعاً:

هذه حالةٌ أخرى من حالات (إطلاق الفعل) في السورة، ورغم ذكر موضع السّفع بعد ذلك، وهو الناصية، الذي قد يرمز إلى المسفوع نفسه، فإنّ خلوّ الآية من ذكر المسفوع يمنحها خصوصيّةً تميّزها عن لغتنا العاديّة.

٤٦- لنسْفَعاً:

هذا تفرّدٌ إملائيٌّ - لغويّ، إذ حلّت الألِف محلّ نون التوكيد في آخر الفعل، ولا يتكرّر هذا في القرآن، ولا نجده في الشعر الجاهليّ، وإن أورد ابن النحّاس في كتابه (إعراب القرآن) شطراً لشاعرٍ لم يذكر اسمه [الشاهد ١٧٣] ولكن من الواضح أنّه يعود إلى الحقبة الإسلاميّة كما يمكن أن نتبيّن بسهولة:

.... ولا تَحمَدِ الشّيطانَ واللهَ فاحمَدا

ورغم أنّ للشعر ضروراته، وهي قاعدةٌ عريضةٌ تُدخِل تحت مظلّتها الكثير من المخالفات اللغوية التي ارتكبها الشعراء مستمتعين بهذه الحصانة الدبلوماسيّة الخاصّة، فإنّ النثر كان بعيداً دائماً عن مثل هذه الامتيازات.

ومن المهمّ الإشارة إلى أنّ نون التوكيد قد ظهرت لفظاً في القراءة القرآنيّة للفعل (لَنسفَعاً) فقرأناها هكذا (لنَسفعن) على حين اختفى لفظها كلّياً من الفعل الذي استشهد به النحّاس، فالحالتان مختلفتان إذن، ولا سيّما أنّ الفعل في الآية جاء مضارعاً، أمّا شاهد النحّاس فهو بصيغة الأمر.

٤٧- أنّ اللهَ يَرى.. لنَسفَعاً:

هذا التفاتٌ آخر في السورة انتقل فيه الخطاب فجأةً من الغائب (هو) في قوله تعالى ﴿ أَلَمْ يَرَىٰ ﴾ إلى المتكلّم (نحن) في قوله (لنسفعن) رغم أن الفاعل في كلا الفعلين عائد على الله تعالى.

٤٨- بالناصية:

إذا كان الفعل (سَفع) بمعنى (لطم) أو (وَسم) أو (سَوّد) أو (أذَلّ)، كما تذهب معظم التفسيرات، فيتوقّع المرء أن يتعدّى إلى مفعوله بنفسه، شأن هذه الأفعال كلّها، فيقول: (لنَسفعنْ ناصيته). ولكنّ الفعل اكتسب هنا خصوصيّةً قرآنيّةً أخرى بتعدّيه إلى مفعوله بحرف الباء، بغضّ النظر عن وظيفة هذه الباء هنا.

٤٩- لَنسفَعاً بالناصية:

تختصّ السورة بهذا التعبير فلا يتكرّر في غيرها من السوَر. وهو، إلى ذلك، تعبيرٌ لم يعرفه شعر العرب ولا نثرهم، لا قبل القرآن ولا بعده، ولم يعرفه الحديث النبويّ أيضاً.

٥٠- بالناصية. ناصيةٍ:

رغم أنّ المدرسة الكوفيّة في النحو لم تُجِز إبدال النكرة من المعرفة إلاّ بشرط وصفها، لأنّ الوصف أو الإضافة يخفّفان من تنكيرها، كقولنا:

عدتُ من المدرسةِ مدرسةِ الخياطة

ورغم أنّ المدرسة البصريّة قد أجازت ذلك النوع من البدل من دون أيّ شرطٍ، فإنّ الشواهد على لجوء العرب لهذا النوع من البدل، خارج القرآن الكريم، عزيزةٌ نادرة، وأندر منها أن يكون المبدَل منه مجروراً لفظاً كما جاء هنا (بالناصية) ولكن منصوباً محلاًّ، كما عرفنا، لأنّه كان في موقع المفعول به قبل زيادة الباء (لَنَسفعنْ ناصيته).

ولكن ما يهمّنا أوّلاً في هذه العبارة، ويجعلنا نضمّها إلى الصيغ اللغويّة الجديدة، هو ذلك الانفصال اللغويّ التامّ بين البدل والمبدل منه بمجيء كلٍّ منهما في آيةٍ مستقلّة.

٥١- ناصيةٍ كاذبةٍ:

هذه الصورة القرآنيّة الجديدة التي تَنسب الكذب إلى الناصية (أي شعر الجبهة) بدلاً من صاحب الناصية (وهو أبو جهل) لا بدّ أنّها قد فاجأت العربيَّ الأوّل، فلم يعرف الشعرُ ولا النثر مثل هذه الصورة، لا قبل القرآن ولا بعده، ثمّ إنّها تقتصر على سورة (العلق) فلا تتكرّر في القرآن، ولا وجود لها في الحديث الشريف.

٥٢- ناصيةٍ .. خاطئةٍ:

وهي صورةٌ مجازيّةٌ جديدةٌ أخرى متفرّعةٌ عن الصورة السابقة، فالخاطئ هو صاحب الناصية وليس الناصية نفسها.

٥٣- ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

تعبيرٌ قرآنيٌّ فريدٌ ومميّز، عن الخطيئة والكذب والجهل، لا نجد مثله أو ما هو قريبٌ منه في الشعر الجاهليّ، ولا بعد ذلك في أيٍّ من صفحات شعرنا أو نثرنا العربيّ، ولا نجده أيضاً في الحديث الشريف.

٥٤- فلْيَدْعُ ناديَه:

فضلاً عن اختصاص سورة (العلق) بهذا التعبير؛ إذ لا يتكرّر في أيٍّ من السوَر الأخرى، فإنّه تعبيرٌ خاصٌّ بالقرآن الكريم، ولا نجده في أيّة صفحةٍ من صفحات تراثنا الشعريّ أو النثريّ قبل الإسلام أو بعده، ولا في الحديث الشريف.

٥٥- فلْيَدْعُ ناديَه. سَندْعُ الزَبانِيَة:

من الواضح أنّ الرابط اللغويّ الذي اعتادت لغتنا البشريّة أن تستخدمه بين مثل هاتين الجملتين مفقودٌ هنا. إنّنا نقول:

فلتُحضِرْ محاميَكَ وسنحضر محاميَنا، أو:

ألقوا أنتم بأسلحتكم وسنلقي نحن بأسلحتنا،

ولا نقول:

فلْتحْضِرْ محاميَك سنُحْضِرُ محاميَنا، ولا:

ألقوا بأسلحتكم سنلقي بأسلحتنا،

إلاّ إذا أردنا أن نحضر محاميَنا قبل أن يُحضر محاميَه، أو أن نُلقي بأسلحتنا قبل أن يُلقوا هم بأسلحتهم، وليس هو المراد. وهكذا نرى الآيةَ اللاحقة وقد فقدت الرابطَ المعتاد الذي يربطها بالآية السابقة، ولو تُرك الأمر للغتنا لقلنا:

فليدعُ هو ناديَه، وسندعو نحن الزبانية، أو:

وسندعو الزبانية

ومهما تعدّدت أمامنا الخيارات فلن نتخلّى عن حرف عطفٍ يربط بين الجملتين على أقلّ تقدير.

٥٦- سنَدْعُ الزَّبانِيَة:

وهذه مفاجأةٌ إملائيّةٌ - لغويّةٌ أخرى في السورة، إذ لم يُكتفَ بحذف الواو لفظاً، كما اعتدنا أن نفعل في قراءتنا في مثل هذا السياق -بسبب التقاء ساكنين: الواو والألف- فنلفظها هنا هكذا: (سنَدْعُزْ)، بل حُذفت كتابةً أيضاً، وهي ظاهرةٌ إملائيّةٌ شائعةٌ في القرآن الكريم، كما سبق أن فصّلنا القول في الجزء الأوّل، وإن كنّا لا نرى أيّة علاقةٍ لحذف الواو هنا بقضيّة التقاء الساكنين؛ بدليل حذف الياء أيضاً في مواضع قرآنيّةٍ أخرى لا يلتقي فيها ساكنان، كما بيّنّا، من مثل قوله تعالى:

- ﴿ قَالَ ذَٰلِكَ مَا كُنَّا نَبْغِۚ فَٱرْتَدَّا عَلَىٰٓ ءَاثَارِهِمَا قَصَصًا ﴾ [الكهف: ٦٤]
- ﴿ قَالَ لَهُۥ مُوسَىٰ هَلْ أَتَّبِعُكَ عَلَىٰٓ أَن تُعَلِّمَنِ مِمَّا عُلِّمْتَ رُشْدًا ﴾ [الكهف: ٦٦]

٥٧- سنَدْعُ الزَّبانيَة:

من الواضح أنّ العرب لم يعرفوا مثل هذا التعبير القرآنيّ المثير، لا قبل الإسلام ولا بعده، كما لم يعرفه الحديث النبويّ الشريف. وهو، إلى ذلك، تعبيرٌ خاصٌّ بهذه السورة فلا يتكرّر في غيرها من السوَر.

٥٨- فلْيَدْعُ ناديَه.. سندْعُ الزبانيَه:

هذا نوعٌ جديدٌ من الالتفات القرآنيّ، فقد اختُصِر الزمن في الآيتين، وتداخلت الحياة الدنيا بالحياة الآخرة، فحالما يُطلب من الغائب (المفترض أنّه أبو جهلٍ) أن يدعو ناديه في الدّنيا ليمنعه من الله، لو استطاع، يلتفت الحديث فجأةً من الدنيا إلى الآخرة حيث المتكلّم بصيغة الجماعة، وهو ربّ العالمين، يعلن عليه الحُكم ويدعو زبانية جهنّم الغِلاظ، ليبدأوا تعذيبهم له، وهو لمّا يزل في الحياة الدنيا لم يفارقها.

٥٩- فلْيَدْعُ.. سندْعُ.. كلاّ لا تُطِعْه:

هذا من أغرب أنواع الالتفات في القرآن، إن لم يكن أغربها، على الإطلاق. فقد تنقّل الحديث بسرعةٍ عجيبةٍ، وعبر ثلاث آياتٍ قصيرةٍ متوالية، من صيغة الطلب والغائب (فلْيَدْعُ)، إلى صيغة الإخبار والمتكلّم/ المتكلّمين (سندْعُ)، إلى صيغة الطلب والمخاطَب ﴿كَلَّا لَا تُطِعْهُ﴾ وهو تنقّلٌ سريع الإيقاع، وربّما كانت هذه السرعة من أكثر الأساليب القرآنيّة تأثيراً في نفوس أولئك العرب الذين عايشوا تنزّل السوَر في أيّام الوحي الأولى وأحسّوا في هذا التلفّت اللغويّ السريع إيقاعاً يتجاوز بكثيرٍ إيقاع حياتهم الصحراويّة المتراخية، وكأنّه ينذرهم، بهذا الإيقاع العسكريّ الحادّ، بانتهاء أيّام الاسترخاء والكسل، ويهيّئهم لاستقبال حقبةٍ حضاريّةٍ ذات إيقاعٍ متسارع، لتُحقّق في عقدين من السنين ما لم، ولن تحقّقه حضارات البشر على مدى عقودٍ طويلة.

٦٠- واسجُد:

من خصائص هذا الفعل، إلى جانب المعنى الاصطلاحيّ القرآنيّ الجديد الذي يحمله، أن يتعدّى دائماً باللام مرتبطةً بمن يكون السجود له، ومن ذلك قوله تعالى:

- ﴿إِلَّآ إِبْلِيسَ قَالَ ءَأَسْجُدُ لِمَنْ خَلَقْتَ طِينًا﴾ [الإسراء: ٦١]
- ﴿وَلِلَّهِ يَسْجُدُ مَن فِى ٱلسَّمَٰوَٰتِ وَٱلْأَرْضِ طَوْعًا وَكَرْهًا﴾ [الرعد: ١٥]
- ﴿وَجَدتُّهَا وَقَوْمَهَا يَسْجُدُونَ لِلشَّمْسِ مِن دُونِ ٱللَّهِ﴾ [النمل: ٢٤]

وقد يستغني الفعل عن التَعدية إذا كان سياق الآية يوضّح طبيعة السجود ويَرمز إلى من يُسجَد له، بحيث يحاط الفعل بقرائن للسجود كالركوع والعبادة، كقوله تعالى:

- ﴿يَٰٓأَيُّهَا ٱلَّذِينَ ءَامَنُوا۟ ٱرْكَعُوا۟ وَٱسْجُدُوا۟ وَٱعْبُدُوا۟ رَبَّكُمْ﴾ [الحجّ: ٧٧]
- ﴿يَٰمَرْيَمُ ٱقْنُتِى لِرَبِّكِ وَٱسْجُدِى وَٱرْكَعِى مَعَ ٱلرَّٰكِعِينَ﴾ [آل عمران: ٤٣]

ولكن الفعل في هذه السورة لم يرتبط بسياقٍ يمهّد له، رغم الحديث عن الصلاة في أواسط السورة ﴿ أَلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰ ﴾، فقد ظهر الفعل (اُسجُد) أمامنا فجأةً بعد تنقّل الحديث بين موضوعاتٍ شتّى، حتّى انتهى إلى العقوبة التي تنتظر أبا جهلٍ، وإلى الطلب من الرسول ﷺ عدم التساهل معه أو الاستجابة له، ومع ذلك تفاجئنا العودة إلى الحديث عن الصلاة، ويفاجئنا مجيء الفعل من غير تعديةٍ على الإطلاق، وبإلحاقه بفعلٍ آخر لا يرتبط به، من حيث المعنى، ارتباطاً واضحاً ومألوفاً لدينا: ﴿ وَٱسْجُدْ وَٱقْتَرِب ﴾.

٦١ – واقترِبْ:

لقد استقلّ هذا الفعل عن نظائره بمعنىً جديدٍ لا هو بالزمانيّ ولا بالمكانيّ، كما أسلفنا، ولكنّه استقلّ عنها أيضاً بعدم التعدية إلى غيره.

لقد اعتدنا في استعمالاتنا العاديّة لهذا لفعل أن يتعدّى بحرفَي الجرّ (من) أو (إلى)، ولا سيّما حين نستخدمه للمكان، فنقول:

اقترب القطار من المحطّة، أو:

اقترِب بمقعدك منّي.

وكنّا نتوقّع أن يتلو الفعلَ، حتّى في معناه القرآنيّ الجديد هذا، ما يتعدّى إليه، كأن يكون: (واقترِبْ منّي) أو: (واقترِب إلى الله) ولكنّه تجاوز أعرافنا اللغويّة المعتادة بتجرّده تماماً ممّا يمكن أن يتعدّى إليه.

٦٢– واسجُد واقترِبْ:

لا يتكرّر هذا التعبير في أيّ مكانٍ آخر من القرآن، فهو خاصٌّ بهذه السورة، وهو إلى ذلك خاصٌّ بالقرآن الكريم وحده، فلا نعثر عليه في تراثنا الجاهليّ أو الإسلاميّ، الشعريّ أو النثريّ، حتّى هذا اليوم. ولا وجود له في الحديث الشريف.

ثالثاً: السبائك القرآنيّة

١- اِقرأ باسمَ ربِّكَ الذي خَلق:

عرفنا سابقاً خصوصيّة استعمال كلٍّ من التعبير ﴿ ٱقۡرَأۡ بِٱسۡمِ ﴾ والتعبير ﴿ بِٱسۡمِ رَبِّكَ ﴾ والتعبير ﴿ ٱلَّذِي خَلَقَ ﴾، ولا شكّ أنّ اجتماع هذه الخصوصيّات الثلاث في سبيكةٍ لغويّةٍ واحدةٍ سيجعل منها سبيكةً متفرّدةً خاصّةً بالقرآن الكريم، وربّما خاصّةً بهذه السورة وحدها. ولو عبّرنا عن هذا المعنى القرآنيّ بلساننا لقلنا شيئاً من هذا القبيل:

هيّا واقرأ الكتاب يا محمّد وابدأ بذكر اسم الله الذي خلقك وبني البشر.

٢- خَلَق. خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

ولو أردنا التعبير بلغتنا الإنسانيّة عن المعنى القرآنيّ لهذه السبيكة اللغويّة الجديدة لقلنا مثلاً:

خلقكَ وخَلق الناس، أو البشر كلّهم، من جُرمٍ صغيرٍ بشكل علقة

٣- اِقرأ وربُّكَ الأكرم:

رغم احتمال هذه السبيكة، بتركيبها الفريد، لأكثر من معنىً؛ فإنّ لغتنا البشريّة يمكن أن تعبّر عن أحد هذه المعاني بشيءٍ قريبٍ من قولنا:

اِقرأ الكتاب يا محمّد واطمئنّ إلى أنّ ربّك هو أكرم من في الوجود

٤- الأكرمُ. الذي عَلَّم بالقلم:

إنّ اجتماع الاستعمال المتفرّد للّفظ (الأكرم)، كما سبق أن رأينا، مع الاستعمال المتفرّد للفعل (علّم)، الذي تجرّد من أيّ مفعولٍ اعتدنا أن يتعدّى إليه، منح هذه السبيكة القرآنيّة خصوصيّةً تميّزها بوضوحٍ عن لغتنا اليوميّة التي كان يمكن أن تعبّر عن هذا المعنى بمثل قولنا:

إنّ ربّك، وهو أكرم ما في الوجود، هو الذي علّم النّاس بقلمه، أو بإرادته أو بعِلمه.

٥- علَّمَ الإنسانَ ما لم يَعلم:

التعبير البشريّ البديل عن هذه السبيكة القرآنيّة، المؤلّفة من تعبيرين قرآنيّين مميّزين، سيكون شيئاً من قَبيل:

لقد علّم النّاس علماً لم يَعلموه من قبل

٦- كلاّ إنّ الإنسانَ لَيَطغَى:

بدهيٌّ أن الاستخدام القرآنيّ المتفرّد للّفظ (كلاّ)، كما مرّ بنا، وللتركيب اللغويّ ﴿ كَلَّآ إِنَّ ﴾، والوضع اللغويّ للفعل (ليطغى)، من شأن ذلك كلّه أن يضفي على هذه السبيكة اللغويّة، ببنائها النحويّ المتفرّد، إلى جانب إيقاعها اللفظيّ، خصوصيّتها القرآنيّة المميّزة.

٧- لَيَطغَى. أن رآهُ استَغنَى:

سنعبّر عن هذا المعنى القرآني، لو انطلقنا من لغتنا البشريّة، هكذا، أو شيئاً قريباً منه:

إذا أصبح الإنسان غنيّاً سيَطغى، أو يَتكبّر، في تعامله مع الناس

٨- إنّ إلى ربِّكَ الرُجعى:

وسنعبّر عن هذا المعنى القرآنيّ بشيءٍ من هذا القبيل:

إنّكم لا بدّ راجعون إلى ربّكم في النهاية

٩- أرأيتَ الذي يَنهى. عبداً إذا صلّى:

إنّ الاستخدام القرآني المميّز للفعل (أرأيتَ) في هذه السبيكة، ثمّ المعنى القرآنيّ الجديد الذي اكتسبته فيها الأداة (إذا)، كما رأينا، وكذلك الفصل بين الفعل

(يَنهى) ومفعوله (عبداً) ليكونا في آيتين لا آيةٍ واحدة، مع تنكير هذا اللفظ الأخير، كلّ ذلك، إضافةً إلى بنية إيقاعها اللفظيّ، من شأنه أن يمنح السبيكة شخصيّتها القرآنيّة المميَّزة.

١٠- أرأيتَ إنْ كان على الهدى:

بناء هذه السبيكة، بكلّ مفرداتها ومواقع هذه المفردات وعلاقاتها الواحدة مع الأخرى، بناءٌ متفرّدٌ وخاصٌّ بالقرآن الكريم، ولو أردنا أن نصوغها بلغتنا التقليديّة لكانت شيئاً من هذا القبيل:

ما قولك، أو ما رأيك، أو ماذا لو ثبَت لك أنّ هذا العبد كان على حقٍّ؟

١١- أرأيتَ إنْ كَذَّب وتولّى. ألم يعلمْ:

إنّ خصوصيّة استعمال كلٍّ من التركيب (أرأيت) والأداة (إنْ) والفعلين (كذّب) و (تولّى)، وكذلك خصوصيّة العلاقة اللغويّة بين الآيتين في هذه السبيكة، وخصوصيّة إيقاعها اللفظيّ، تمنحها فرادةً تستقلّ بها عن سبائكنا البشريّة، وربّما عن السبائك القرآنيّة الأخرى أيضاً.

١٢- كلاّ لئن لم ينتهِ لنَسْفَعاً:

الخصوصيّات العديدة التي تتمتّع بها ألفاظ هذه السبيكة وتراكيبها، ولا سيّما ﴿كَلَّا لَئِن﴾ و ﴿يَنتَهِ﴾ و ﴿لَنَسْفَعًۢا﴾، فضلاً عن طبيعة العلاقات النحويّة بين هذه العناصر الثلاثة، تمنح السبيكة خصوصيّتها القرآنيّة المميّزة.

١٣- بالناصيةِ. ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

بدهيٌّ أنّ إبدال النكرة من المعرفة في هذه السبيكة، كما أوضحنا سابقاً، والفصل بينهما في آيتين، ثمّ التعبير عن المذكّر (الإنسان الذي يكذّب ويتولّى) بالمؤنّث (ناصية) مع وصف هذه الناصية بصفتين مؤنّثتين أخريين ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، يجعل منها سبيكةً خاصّةً بالقرآن، فضلاً عن تفرّد السورة بهذه السبيكة دون بقيّة السوَر.

١٤- فلْيَدْعُ ناديَهُ. سنَدْعُ الزبانيَه:

هذه الصيغة القرآنيّة الفريدة، وهي الأمر في الآية الأولى، والردّ على عاقبة هذا الأمر في الثانية: (هو يدعو أزلامه لينصروه ونحن سندعو زبانية جهنّم)، من غير أيّ رابطٍ لغويٍّ بين الآيتين، كما رأينا، إلى جانب تعريف من سيستنجد به الكافر من أزلام ومناصرين، بإضافته إلى الهاء (ناديَه)، والاكتفاء بتعريف (الزبانية) بال التعريف من غير إسنادها إلى ضميرٍ أو اسم يوضّح صاحب هؤلاء الزبانية أو صفتهم أو مكانهم (زبانيتنا، أو: زبانية جهنّم، مثلاً)، كلّ ذلك يجعل منها سبيكةً قرآنيّةً لها خصوصيّتها وتفرّدها.

١٥- كلاّ لا تُطِعْهُ واسجُد واقتربْ:

اجتمع في هذه السبيكة عددٌ من الخصائص القرآنيّة، اللفظيّة والتركيبيّة والتعبيريّة، كالاستعمال الخاصّ للّفظ (كلاّ) ووجود التركيب ﴿كَلَّا لَا﴾ والتعبير ﴿وَٱسۡجُدۡ وَٱقۡتَرِب﴾، ممّا يجعل منها سبيكةً خاصّةً بالقرآن وحده، وربّما بهذه السورة دون غيرها من السوَر.

رابعاً: اللغة المنفتحة

١- اِقرأ:

إنّ عدم تعدّي هذا الفعل إلى مفعولٍ محدّدٍ من شأنه أن يمنحه ظلالاً غنيّةً بالمعاني، وأن يفتح الباب أمامنا على عدّة احتمالاتٍ لطبيعة هذا المفعول:

فقد يكون أمراً بقراءة القرآن، رغم أنّ القرآن لم يكن قد تنزّل منه بعد، عند نزول الآية، إلاّ هذه الكلمة،

وقد يكون أمراً للرسول بأن يذكر الله، رغم أنّ ردّ الرسول ﷺ حين سمع هذا اللفظ، بقوله: (ما أنا بقارئ) يضعف هذا الاحتمال، إذ لا يعقل أن يرفض ﷺ ذكر الله، كما يرى الرّازي،

وربّما كان أمراً بالتسمية قبل القراءة؛ أي اقرأ ما أُنزل إليك من القرآن مفتتحاً باسم ربّك، وهو أن تذكر التسمية في ابتداء كلّ سورةٍ، كما يرى القرطبيّ في تفسيره،

أو لعلّه أراد: (كن قارئاً بعد أن كنتَ أمّياً لا تقرأ) فيتحوّل الرسول ﷺ بمعجزةٍ من الله، بعد نزول هذه الآية، إلى قارئ.[1]

٢- باسمِ ربّك:

لو كانت الآية هكذا: (ابدأ بسم الله) لما كان هناك متّسعٌ للمناورة في تقدير المعنى المقصود، ولكنّ الابتداء بالفعل (اِقرأ) أعطى شبه الجملة (باسْمِ)، وبشكلٍ أخصّ حرف الباء فيها، عدّة احتمالات:

فربّما كان المعنى هو حقّاً (ابدأ القراءة بذكر اسمه تعالى)،

أو ربّما كان المعنى (ابدأ القراءة مستعيناً به)،

أو ربّما كان (ابدأ القراءة من أجله)،

أو ربّما (ابدأ رسالتك متحدّثاً باسمه ورسولاً منه إلى بني البشر).

وما يزال المقام مفتوحاً لمعانٍ كثيرةٍ أخرى يحملها لنا المستقبل والأجيال المتلاحقة من المفسّرين والعلماء، من غير أن يكون لأحدٍ الادّعاءُ بالتوصّل إلى تفسيرٍ نهائيّ.

---

(١) من المهم أن أشير هنا إلى أنّ هذا المعنى الأخير هو رأيٌ من عندي، ولا أجد بين المفسّرين من قال به. وهو تحرّزٌ منّي أمام القارئ حتّى يكون على بيّنةٍ من أصل هذا الرأي، وسيجد بطبيعة الحال آراءً عديدةً أخرى لي مبثوثةً في هذا البحث، وأنا أصرّ على أنّ القرآن كان وسيظلّ مفتوحاً أمام العصور لينهل المفسّرون منه المزيد من المعاني على اختلاف الأزمنة والأمكنة، على ألاّ تتناقض في هذه المعاني الآيةُ مع الآية، ولا تتعارض مع ما صحّ من السنّة النبويّة الشريفة، ولا مع المنطق اللغويّ، ولا مع روح الإسلام بعامّة.

٣- الذي خَلَق:

إنّ تجريد هذا الفعل من مفعوله منحه أبعاداً لم يكن ليصل إليها فيما لو ذُكر المفعول. وهكذا ذهب المفسّرون في تأويله مذاهب شتّى:

فقالوا: ربّما لا يُقدَّر له مفعولٌ فهو بمعنى: الذي حصل منه الخلق، إذ لا خالق سواه،

وقالوا: ربّما يقدَّر له مفعول، أي: خَلق كلّ شيء،

وقالوا: ربّما كان مبهَماً ولكن فسّره الفعل المشابه الذي تلاه وأُبدل منه، وذلك تفخيماً لخلق الإنسان.

٤- عَلَق:

اقترح المفسّرون عديداً من المعاني لهذا اللفظ، ويعطينا ذلك التعدّد فكرةً عن غنى اللفظ وانفتاحه لاحتمالاتٍ عديدة:

فهو دويبةٌ في الماء تمتصّ الدم، شبّه بها شكل المخلوق الإنسانيّ أوّل الحمل،

وهو أيضاً الطين الذي يعلق باليد، شبّه به شكل التصاق هذا المخلوق الصغير برحم المرأة،

وهو الدم الجامد أو الغليظ، فإن جرى وسال فهو (المسفوح)، شبّه به الشكل الأوّل للمخلوق،

وهو الدم عامّةً، أو هو الدم الشديد الحمرة، شبّه به لون المخلوق،

وهو الخصومة أو المحبّة الملازمتان للمرء فلا تفارقانه، شبّه بهما علوق المخلوق بجدار الرحم،

وهو كلّ ما عَلِق بشيء.

٥- اِقرأ وربُّك:

لنا أن نتوقّع، وقد تكرّر الفعل (اِقرأ) مرّةً ثانية خلال ثلاث آيات، أن يكون هذا التكرار توضيحاً لما لبس علينا من حقيقة القراءة التي افتُتحت السورة بفعلها، فيقال مع الفعل الثاني مثلاً:

اِقرأ آيات ربّك، أو:

اِقرأ كتابنا على الناس، أو:

اِقرأ وردّد خلف جبريل ما يتلوه عليك، أو:

اِقرأ الآن بقدرة الله بعد أن كنتَ أمّياً،

ولكنّنا نفاجأ بأنّ الفعل الثاني قد خلا أيضاً من التعدّي إلى أيّ شيءٍ يمكن أن يجيب عن تساؤلاتنا، فليس أمامنا إلاّ جملةٌ جديدةٌ مبدوءةٌ بواو الحاليّة أو الاستئنافيّة، ولا يمتّ معناها بتحديدٍ كافٍ إلى معنى القراءة: ﴿وَرَبُّكَ ٱلْأَكْرَمُ﴾.

فهل الكرم هنا هو تعريفٌ آخر لله تعالى الذي يخاطب رسوله لأوّل مرّة، حتّى يكون الرسول ﷺ على بيّنةٍ كافيةٍ من طبيعة خالقه، وصفات هذا الخالق؟

أم هو الكرم الذي تجسّد باختياره تعالى لمحمّدٍ ﷺ دون غيره نبيّاً ورسولاً منه إلى العالمين؟

أم هو الكرم الذي أُسبغ عليه لتوّه وقد غدا فجأةً يقرأ ويكتب بعد أن كان أمّياً؟

أم هو الكرم المتمثّل في تجاوزه تعالى عن جهل عباده فلم يعجّل بعقوبتهم على جحودهم وهو الذي ﴿عَلَّمَ ٱلْإِنسَٰنَ مَا لَمْ يَعْلَمْ﴾؟

أم هو كلّ هذا وذاك، إلى جانب ما خفي عنّا من أسبابٍ لذكر الكرم في هذا المقام؟

ثمّ اختلفوا في موضع (الأكرم) من الإعراب، فزاد ذلك من فرص المعاني المحتملة:

فهل إعرابها صفةٌ للّفظ (ربُّ) ثمّ تأتي جملة ﴿ عَلَّمَ ٱلۡإِنسَٰنَ ﴾ خبراً لذلك اللفظ؟

أم هي خبرٌ له، و (الذي) خبرٌ ثانٍ، أو صفةٌ ثانيةٌ له؟

وهل جملة ﴿ وَرَبُّكَ ٱلۡأَكۡرَمُ ﴾ جملةٌ حاليّةٌ؛ أي: (اقرأ مستعيناً بكرم ربّك)؟

أم هي جملةٌ استئنافيّةٌ، أي: (اقرأ، ثمّ إنّ ربّك هو الكريم على خلقه بأن علّمهم)؟

وبين هذه الاحتمالات جميعاً تتوقّد الكلمة بسعتها، وتَغنى بانفتاحها أمام عقول البشر المختلفة، وعلى مدى العصور المتوالية.

٦- عَلَّمَ بالقلم:

ما يزال المفسّرون على غير رأيٍ واحدٍ في تفسير (القلم) وكذلك (التعليم بالقلم). ومن حقّهم أن يتساءلوا، ومن حقّنا اليوم أن نطرح على أنفسنا مثل هذه الأسئلة ونحن نقرأ الآية:

أيّ قلمٍ هذا القلم، وما نوعه من الأقلام؟

ولماذا اختار تعالى (القلم) للحديث عن التعليم وليس القرطاس أو الكتاب أو القراءة أو الكتابة أو الشرح أو التنزيل أو الوحي أو الإلهام؟

وهل هو القلم الذي ورد في الحديث: "أوّل ما خلق الله: القلم، فقال له: اُكتب، فكتب ما يكون إلى يوم القيامة، فهو عنده في الذكر فوق عرشه"؟[1]

أم هو قلم الملائكة الذي يحصون به أنفاسنا وأعمالنا، والذين قال تعالى فيهم: ﴿ وَإِنَّ عَلَيۡكُمۡ لَحَٰفِظِينَ ۝١٠ كِرَامٗا كَٰتِبِينَ ﴾ [الانفطار: ١٠-١١]

أم هو القلم العاديّ في يد البشر يتعلّمون به ما شاء الله لهم أن يتعلّموه، تأكيداً لقوله تعالى: ﴿ وَلَا يُحِيطُونَ بِشَيۡءٖ مِّنۡ عِلۡمِهِۦٓ إِلَّا بِمَا شَآءَۚ ﴾ [البقرة: ٢٥٥]

---

(١) الترمذي، **الجامع الصحيح (سنن الترمذي)**، مرجع سابق، ج٥، ص٤٢٤، حديث رقم ٣٣١٩.

وهل جاء ذكر القلم هنا من أجل إظهار الفرق الإعجازيّ بين ما يقع للبشر من تعليم بالقلم، وما وقع للرسول ﷺ من تعليمٍ إلهيٍّ فوريّ للقراءة، ومن غير الحاجة إلى هذا القلم؟

أم هو إنباءٌ ربّانيٌّ مسبَقٌ عن الثورة العلميّة والحضاريّة التي تنتظر الجزيرة العربيّة والعالم كلّه قريباً، عقب اكتمال نزول القرآن الكريم؟

وهل كان الجمع الغريب بين (الخَلق من عَلَق) و (التعليم بالقلم) إظهاراً وتوضيحاً (للكرم) الربّاني الذي نقل الإنسان هذه النقلة الهائلة من الدرْك الأسفل للمخلوقات (العلَق) إلى المستوى العلميّ الرفيع بالقراءة والكتابة ليَعلم الإنسانُ ما لم يكن ليَعلمه من غير فضل الله عليه وكرمه؟

أو هو كلّ ذلك معاً، وأمورٌ أخرى تُركت للاّحقين يستدركون بها على السابقين من العلماء والمفكّرين والمفسّرين؟

٧- عَلّم.. عَلّم:

هذان فعلان متشابهان يتعدّيان عادةً إلى مفعولين. أمّا الأوّل فلم يلحقه أيٌّ من هذين المفعولين، وهذا يجعل الاحتمالات مفتوحةً أمام القارئ لفهم طبيعة التعليم وفحواه، وكذلك حقيقة المتعلّم ومن هو. وأمّا الثاني فقد ذُكر مفعوله الأوّل (الإنسان) وهذا قد يلقي أمامنا ضوءاً عن المتعلّم الذي كنّا ما نزال نبحث عن حقيقته بعد قراءتنا لفعل التعليم الأوّل. ولكن حين يأتي المفعول الثاني مع ملحقاته ﴿ مَا لَمْ يَعْلَمْ ﴾ نقف من جديدٍ أمام لائحةٍ طويلةٍ من التوقّعات التي أوحت لنا بها الأداة (ما) هنا -سواءٌ أكانت اسم موصولٍ أم نكرةً تامّةً بمعنى (شيء)-:

فهل المقصود من تعليم الإنسان هو ما علّمه تعالى لآدم حيث قال في سورة (البقرة): ﴿ وَعَلَّمَ ءَادَمَ ٱلْأَسْمَآءَ كُلَّهَا ﴾ [٣١]؟

أو هو تعليم الإنسان عامّةً لما يكتشفه كلّ يومٍ من المعارف والعلوم؟

أو هو إرساله الرسل لتعليم البشر ما يجب أن يعرفوه عن خالقهم وهدايتهم إلى الصراط المستقيم؟

أو هو تعليم نبيّه القراءة بعد أن كان أمّياً لا يقرأ ولا يكتب؟

فلو قال مثلاً: علّم الإنسان القراءةَ أو الكتابة أو اللغات أو الحكمة أو العلوم المختلفة، لكان التعبير مقتصراً على واحدٍ من هذه الأشياء فلا يتعدّاه إلى غيره، ولكن الآية اختُتمت بأجمل وأخصب طريقة: ﴿ مَا لَمۡ يَعۡلَمۡ ﴾.

٨- ٩- الإنسان [مكرّر]:

إنّ لفظ (الإنسان) قد نقل المعنى من المحلّية الضيّقة إلى الشموليّة. وفي أوّل رسالةٍ يحملها جبريل من الله إلى رسوله تذهب توقّعاتنا البشريّة، وضمن هذا السياق للآيات، إلى أن يكون الخطاب موجّها إلى الرسول ﷺ بشكلٍ مباشر، هكذا: ﴿وَعَلَّمَكَ مَا لَمۡ تَكُن تَعۡلَمُ ﴾ -كما قال له تعالى بعد ذلك في الآية ١٣ من سورة (النساء)- ولكنّه المنهج الربّاني في مخاطبة البشر بهذه الشموليّة المنفتحة على الزمان والمكان والموضوع:

فالتعليم الآن ليس للرسول ﷺ وحده، بل لكلّ الناس،

وليس لزمنه وحده، بل لكلّ الأزمان،

ولن يقتصر على البقعة التي نزل فيها الوحي بل سيشمل قريباً العالم كلّه.

وينطبق هذا أيضاً على لفظ (الإنسان) الذي سيتلو في قوله تعالى: ﴿ إِنَّ ٱلۡإِنسَٰنَ لَيَطۡغَىٰٓ ﴾.

١٠- ما لم يَعلم:

عرفنا قبل قليلٍ ما في هذا التعبير من إطلاقيّةٍ تستوعب مختلف المعارف الإنسانيّة على تنوّعها.

١١ إلى ١٣- كلاّ [مكرّر ٣ مرّات]:

وعرفنا في دراستنا لسورة (الهُمَزة) الاحتمالات الكثيرة التي تحتملها هذه الأداة في استعمالاتها القرآنيّة الجديدة، وما يدور حول معانيها من ظلالٍ وألوانٍ تغني العبارات القرآنيّة التي تتضمّنها.

١٤- يَنهَى عبداً:

التنكير وسيلةٌ أساسيّةٌ من وسائل التعبير إذا أردنا أن نمنح لغتنا نوافذ جديدةً من الانفتاح. وباللفظ النكرة (عبداً) نال المعنى استحقاقاتٍ احتماليّةً إضافيّةً ما كان له أن ينالها لو جاء معرّفاً. فالعبد هنا، بتنكيره، لم يعد قاصراً على النبيّ ﷺ وهو يتعرّض إلى الأذى من أبي جهلٍ الذي عاهد نفسه فقال: "لئن رأيتُ محمّداً يصلّي عند الكعبة لأطأنّ على عُنقِه"[1]. بل أضحى حالةً إنسانيّةً عامّةً يمكن أن تتعامل مع أيّ واقعةٍ أخرى مشابهة، أو موازيةٍ لها، على مدى الزمان والمكان.

١٥ إلى ١٧- أرأيتَ الذي، أرأيتَ إن كان، أرأيتَ إنْ كَذّبَ:

عرفنا كيف حُذف المفعول الثاني للفعل (أرأيت) الأوّل، والمفعولان معاً للفعل الثاني، والمفعول الأوّل للفعل الثالث. وهذا الحذف المتوالي للمفعولات يشير إلى هندسةٍ لغويّةٍ جديدةٍ لبناء الجملة أدخلها القرآن على التركيب العربيّ التقليديّ (أرأيت). والبناء الجديد من شأنه أن يمنح الجمل الثلاث آفاقاً إضافيّةً غير محدودةٍ من المعاني، وهي تتأرجح بين الاستفهام والاستنكار والتعجّب والتذكير والتقريع والتحذير والترغيب والترهيب والدعوة إلى الاعتبار، وهذه معانٍ لم يكن ليحملها البناء العربيّ القديم لجملة (أرأيت) لو جرّدناه من هذه الهندسة اللغويّة الجديدة.

ولو كان لنا، على سبيل المثال، أن نقدّر الجزء المحذوف الذي يتمّم الجملة الأولى منها، لقُلنا بعد عبارة ﴿ أَرَءَيْتَ ٱلَّذِى يَنْهَىٰ ۝٩ عَبْدًا إِذَا صَلَّىٰٓ ﴾:

(١) البخاري، **صحيح البخاري**، مرجع سابق، ج٤، ص١٨٩٦، حديث رقم ٤٦٧٥.

فكيف يأمن هذا الناهي عقابَ الله الذي ينتظره؟ أو:

فهل يظنّ هذا الناهي أنّه قادرٌ على تنفيذ تهديده للرسول ﷺ؟ أو:

فهلاّ نهى الناسَ عن الشرّ والكفر بدلاً من أن ينهاهم عن الخير والعبادة والصلاة!

أو غير ذلك من التقديرات الكثيرة المحتملة.

١٨- كَذَّب:

عرفنا في حديثنا عن هذا الفعل كيف أنّ تجريده من المفعول به قد أكسبه أيضاً قوّةً انفتاحيّةً تجعل التكذيب هنا لا يقتصر على الأنبياء، بل يشمل رسالتهم وما أتوا به من هدايةٍ ودعوةٍ إلى الله وتوحيده.

١٩- بأنّ اللهَ يَرى:

جاءت زيادة الباء في مفعول (يعلم) هنا، كما تبيّنا، خروجاً على الاستعمال القرآنيّ العامّ لهذا الفعل، وعلى الاستعمال التقليديّ في لغتنا اليوميّة أيضاً. ولو أضفنا الظلال الجديدة، التي اكتسبها الفعل بزيادة الباء بعده، إلى المعنى المتّسع والعامّ الذي اكتسبه الفعل (يرى)، بتجريده من التعدية، حين لم يقل مثلاً (يراه) أو (يرى كلّ شيءٍ)، بل تركه مفتوحاً لاحتمالاتٍ لا نهاية لها، لأدركنا قيمة هاتين الظاهرتين اللغويّتين في إغناء التعبير وانفتاحه على أكثر من اتّجاه.

لقد تجاوز الفعل هنا، بزيادة الباء بعده، المعنى العاديّ له، وهو (العلم بأنّ الله قادرٌ على رؤية كل شيء) إلى معنىً أكثر عمقاً ورسوخاً وهو (الإيمان والاعتقاد بهذه الرؤية) فضلاً عن العلم بها، وربّما كانت إرادة هذا المعنى الإضافي الذي اكتسبه الفعل هي وراء زيادة الباء بعده، فكأنّه أراد به: ألم (يؤمن) بقدرة الله على رؤيته وعلى رؤية كلّ شيءٍ في هذا الوجود؟

٢٠- لئن لم يَنتهِ:

تنشأ الخاصّية الانفتاحيّة للفعل (ينتهِ) هنا من حذف ما كان يمكن أن يتعدّى إليه. وكان من شأن وجود المتعدَّى بعده أن يحدّ من تفاعل الفعل مع الخيال، أما الآن فنستطيع، في غياب المتعدَّى إليه، أن نستحضر شتّى أنواع المحظورات والمنهيّات عنها لنملأ هذا الفراغ النحويّ في رؤوسنا، بدلاً من الاكتفاء بواحدٍ منها فيما لو قال مثلاً:

لئن لم ينته عن فعله، أو:

لئن لم ينته عن أذاه، أو:

لئن لم ينته عن منعه من الصلاة..

٢١- لَنسفَعَنْ بالناصية:

هنا أيضاً يتجرّد الفعل (نسفع) من مفعوله، ويتخلّى الاسم (الناصية) عن تعريفه بالإضافة. ومن السهل أن نلاحظ الفرق بين العبارة القرآنيّة وقولنا:

لنسفعنّه بناصيته، أو:

لنسفعنّ ناصيته

لقد خرجت الجملة، بحذف كلا المفعول والمضاف إليه، من حيّز الفرد الضيّق إلى فضاء المجموع، فلم يعد التهديد مقتصراً على شخصٍ واحدٍ في حادثةٍ واحدةٍ في زمنٍ واحد، بل يستغرق كلَّ عاصٍ على هذه الأرض، في أيّة معصيةٍ تُرتكب في حقّ الله، وفي أيّ زمانٍ أو مكانٍ أو ظرف.

ولا شكّ أن اختيار الفعل (نسفع) لتحديد العقوبة المنتظرة أضفى على تلك العقوبة ظلالاً قاتمةً، فلهذا الفعل عند العرب معانٍ عدّةٌ كلّها يصبّ في محيط التنكيل والعذاب وسوء المصير:

فهو يعني القبض والجذب الشديد،

ويعني أيضاً الضرب واللطم،

ويعني أيضاً تغيير الشمس والحرارة للوجه إلى السواد.

٢٢- ناصيةٍ كاذبةٍ خاطئة:

عرفنا أن المقصود بالناصية هنا هو صاحب الناصية، وهم مجازٌ بلاغيٌّ من باب إطلاق الجزء على الكلّ، كما يصطلح البلاغيّون، وقد جاء اللفظ هنا "بدلاً" من اللفظ (الناصية) قبله.

ونحن نعرف أنّ البدل يأتي عادةً لتأكيد المبدل منه أو توضيحه أو تحديده، ولو كان البدل هنا معرفةً كالمبدَل منه، كما هي العادة، فجاءت الآية هكذا: (ناصية أبي جهلٍ)، أو: (ناصية المعتدي عليك، أو المؤذي لك) لكان البدل ملبّياً للحاجة التقليديّة إليه، ولكنّه جاء هنا نكرةً موصوفةً بنكرتين متتاليتين ﴿كَٰذِبَةٍ خَاطِئَةٍ﴾، وهذه النكرات الثلاث لا تؤدّي الدور المطلوب من البدل، ولكنّها تؤدّي دوراً آخر شبيهاً بالدور الذي قام به في الموقع السابق حرمانُ الفعل (نسفع) من مفعوله، وتجريد المضاف (الناصية) من المضاف إليه، فنرى هذا الجزء وقد تخلّى عن أن يكون منحصراً في شخصيّة أبي جهل، فتعدّاه إلى كلّ ذي ناصيةٍ؛ أي إنسانٍ، عاصٍ وظالمٍ في هذا الوجود، بغضّ النظر عن زمانه ومكانه ونوع عصيانه وطبيعة ظلمه.

٢٣- الزبانِيَة:

رغم ارتباط هذا اللفظ بال التعريف، فقد جاء أقرب إلى النكرة منه إلى المعرفة. إنّ في جِدّة اللفظ وغرابته على العربيّ الأوّل، كما رأينا، وكذلك تجريده من الإضافة أو الوصف، إذ لم يقل: (زبانية جهنّم) أو: (زبانيتنا) أو: (الزبانية من الملائكة الغلاظ الشّداد) بحيث يصبح هؤلاء المجهولون أكثر تحديداً ووضوحاً،

كلّ ذلك من شأنه أن يمنح اللفظ أطيافاً وأبعاداً خياليةً، لا يمكن أن يسمح بها اللفظ العاديّ أو التقليديّ أو المعرّف تعريفاً حقيقيّاً.

٢٤- واسجُدْ:

قد يكون هذا اللفظ إشارةً مجازيّةً إلى الصلاة نفسها، فهو تشجيعٌ من الله لرسوله على المضيّ في طريقه، والاستمرار في صلاته، والثقة بنصر الله وحمايته، فيكون التعبير بهذا قد استعاض عن الكلّ بالجزء. ولكن ربّما كان استعمال اللفظ حقيقيّاً لا مجازيّاً، فهو يشير إلى السجود نفسه، سجود التلاوة، كما يرى بعضهم، أو أيّ سجود، فيكون السجود على هذا تعبيراً من الرسول ﷺ عن شكره لربّه والاقتراب منه، وهو ما يفسّره الحديث الشريف "أقربُ ما يكونُ العبدُ من ربِّه وهو ساجد."(١)

ولا شكّ أنّ تجرّد الفعل من ذكر الرسول ﷺ صراحةً سيمنحه قوّة انفتاحيّةً إضافيّةً، بحيث يشعر المسلم وهو يقرأه بأنّه موجّهٌ إليه شخصيّاً، وإلى كلّ من آذاه الناس وحاولوا أن يصرفوه عن دينه وعبادته وإيمانه.

٢٥- واقترَب:

ما نوع الاقتراب المراد من هذا اللفظ يا ترى؟ إنّ العلاقة بين اللفظ (اسجد) واللفظ (اقترب) غير واضحة، ولو كانت الآية هكذا مثلاً:

واسجد حتّى تقترب، أو هكذا:

واسجد مقترباً منّي

لتحدّدت تلك العلاقة، ولكنّها تُركت هكذا مفتوحةً لنفهمها بأكثر من طريقة:

فقد يكون اقتراباً إلى الله بالسجود أو الصلاة،

أو قد يكون اقتراباً بشتّى أنواع العبادات، والتفكّر، والثقة بالله، والتوكّل عليه،

أو يكون "سجود التلاوة" الذي يُسَنّ في هذا الموضع من السُّورة،

---

(١) القشيري، **صحيح مسلم**، مرجع سابق، ج١، ص٣٥٠، حديث رقم ٤٨٢.

أو قد يكون حثَّه ﷺ على الاقتراب من الهدف الذي أرسل من أجله للدعوة إلى دين الله،

أو اقتراباً من الناس لتبشيرهم بدين الله ودعوتهم إلى عبادته وتوحيده،

أو قد يكون سجوداً من الرسول ﷺ في صلاته، يليه التفاتٌ قرآنيٌ إلى أبي جهلٍ وتبشيره بالاقتراب من النار، كما ذهب بعضهم،

أو كلّ ذلك معاً، مع ما قد يوحي به هذا اللفظ لقارئيه في المستقبل من ظلالٍ وصورٍ وأفكار.

خامساً: جوامع الكَلِم

١- اقرأ:

هذا لفظٌ واحد، هو أوّل كلمةٍ حملها جبريل عليه السلام من الله تعالى إلى رسوله ﷺ وقد غدت بهذا رمزاً في حياتنا اللغويّة والثقافيّة نطلقها عنواناً لمؤسّساتنا الثقافيّة والعلميّة والإعلاميّة، فكأنّها رمزٌ لرسالة الإسلام، نشير بها إلى القيمة التي منحها هذا الدين للثقافة والعلم والتفكير.

٢- خَلَق الإنسانَ مِن عَلَق:

وهذه آيةٌ يمكن أن تعبّر بكلماتها القليلة الأربع عن حقارة الإنسان الذي يتجبّر ويتكبّر حين يصل إلى القوّة أو السلطة أو المال، متناسياً أنّه لم يكن أكثر من علَقةٍ ابتدأ بها وجودُه مثلما ابتدأ وجودُ أيّ مخلوقٍ حيٍّ على وجه الأرض.

٣- عَلَّم الإنسانَ ما لم يَعْلم:

كلّما تقدّم العلم خطوةً إلى الأمام، وتمكّن الإنسان من كشف المزيد من الأسرار التي أودعها الله في هذه الطبيعة من حولنا، عنّت لنا هذه الآية، وانطلق بها لساننا مسبّحاً الله على عظمته، ومعترفاً بنعمه وفضله، وعلمه الذي وسع كلّ شيء.

٤- إنّ الإنسانَ لَيَطغَى:

هذه آيةٌ نستطيع أن نختصر بها مشهداً كاملاً لرجلٍ آتاه الله مالاً أو سلطاناً فنسي فضل الله عليه، وعتا عن أمر ربّه، وعاث في الأرضِ ظلماً ومعصيةً وفساداً.

٥- إنّ إلى ربِّكَ الرُجْعَى:

وهي آيةٌ تذكيريّة نطلقها ونحن نعظ أنفسنا أو نعظ غيرنا حين نواجه مغريات الحياة أو شدائدها، فنردّدها مطامنين من جموحنا، أو مهدّئين من روعنا، أو معتبرين بنهايتنا الحتميّة المنتظرة.

٦- ألم يعلم بأنّ اللهَ يَرى:

كثيراً ما نبحث عن مثل هذه الآية لتنقذنا ونحن نبحث عن العبارة المناسبة للإعلان عن غضبنا واحتجاجنا، وربما عن إشفاقنا، على شخصٍ نسي، وهو يعيث فساداً وعلوّاً في الأرض، أنّ له ربّا يراقبه ويحاسبه على ما يرتكبه في حقّه وحقّ العباد.

٧- الزبانِية:

أصبح هذا اللفظ جزءاً من قاموسنا السياسيّ، فغدونا نطلقه على رجال الأمن أو الشُّرَط من أعوان كلّ سلطةٍ أساءت استعمال قوّتها وانحرفت عن الصراط، فظلمت العباد وأفسدت البلاد.